تاريخ عمال الزراعة والتراحيل

في مصر والعالم
منذ عهد السخرة
حتى سنة ١٩٦٩

الفصل الرابع

الوجود الاجتماعي
لعمال الزراعة وكادحيه

◆◆◆

obeikan.com

obeikan.com

ثورة المدينة ..

لا جدال على تخلف الريف عن المدينة، وهذا راجع إلى ارتباط المدينة بالثورة الصناعية التى قد أوجدت فى قلب المجتمع الحضرى مُركباً اجتماعياً موحداً فى مجالات العمل والإنتاج، ومتناقضاً فى المصالح والأهداف وقد تمثل هذا المُركب الاجتماعى فى طبقتى العمال والرأسماليين اللتين تجمعهما وحدة الأضداد ويفرقهما تناقض الأضداد كوضعية ضرورية لحياتهم فى المجتمع، مما جعل وجودهما مُركباً اجتماعياً ذا خاصية بركانية لا تكف عن الثورة إلى حد أن المدينة كوعاء إقليمى وحضارى لهذا المُركب قد تحولت أيضاً إلى منطقة بركانية وثورية تموج دوماً بالتناقضات الطبقية الحادة..

ومن ثم تولدت حتمية الصراع الطبقى، مما دفع العمال مبكراً من بدئ نشاطهم إلى ممارسة نضالات عفوية تم فيها تحطيم الآلات وتخريبها ظناً منهم أنها سبب شقائهم وليست الرأسمالية التى لم يعرفوا وقتها إلا بعض ظواهرها السطحية، حيث كانت معرفتهم بالحياة والمجتمع معرفة حسية محدودة، ولكن مع تزايد تجارب نضالهم وتشربهم بنظرية الاشتراكية العلمية.. كنتاج لمجهودات ماركس وانجلز.. تطورت معرفتهم إلى معرفة عقلية ومنطقية جعلتهم يدركون جيداً أن الصراع الطبقى هو قوة التاريخ المحركة فى كافة المجتمعات الاستغلالية وبالتالى يتحقق التقدم الاجتماعى بدونه..

وهكذا أدرك العمال ضرورة الصراع الطبقى وحتميته، ولهذا فهم يرفضون

عموماً نظرية الوفاق الطبقى فكراً وعملاً، يشهد على ذلك نضالات العمال التى لا تتوقف ضد مستغليهم، هذه النضالات العظيمة التى هى خير برهان على ثوريتهم الدائمة والمستمرة كوسيلة كفاحية إلى غاية اجتماعية وتقدمية تتجلى بشكل عام فى التقدم الاجتماعى الملموس فى حياة المدينة بينما بقى الريف فى وضع متخلف وفقير..

ووضع المدينة على هذا النحو وقد هيأ لها مركز القيادة فى الثورات الوطنية والديمقراطية، ولذلك وجدت فرصتها فى امتصاص أغلب ثمرات التقدم الاجتماعى الذى حققته هذه الثورات تاركة للريف وكادحيه فتات الفتات.

والثورة الوطنية فى مصر قد تأثرت بالمدينة وثورتها، حيث كانت القاهرة والإسكندرية وبقية المدن الكبرى هى معاقل الثورة الأساسية، وهذا ما جعلها ثورة مدنية محدودة لم تمتد إلى الريف لكى تهز أعماقه بُغية القضاء على العلاقات الإقطاعية والمتخلفة فيه، ومن ثم يتطور الوجود الاجتماعى لعمال الريف وكادحيه فينشأ الضمان الأكيد لتحقيق الثورة الشاملة ممثلاً فى تحالف العمال والفلاحين، وهذا ما يُفزع الاستعمار وتحالف الإقطاع ورأس المال دون أى شئ آخر. حيث يذكرنا التاريخ الحديث أن مستر بيفن حينما قابل صدقى باشا ليفاوضه حول مشروع الدفاع المشترك، شكا له صدقى باشا من نمو الوعى والفكر اليسارى فى مصر، ولكن مستر بيفن سأله، هل لهذا الفكر امتداداته إلى الريف، فأجاب بالنفى، حينئذٍ طمأنه وزير خارجية بريطانية الاستعمارية وأحد قادة حزب العمال البريطانى..

ولذلك فالثورة المدنية المحدودة هى سبب التخلف الحضارى والاجتماعى الذى ما زال يعانى منه الريف فى بلاد الغرب المتقدمة صناعياً، حيث يبدو تخلف عمال الزراعة والتراحيل عن أخوتهم وزملائهم عمال الصناعة والتجارة كأبرز سمة من

سمات التخلف بين الريف والمدينة. يؤيد ذلك ما ورد بالتفسير الذى وضعته اللجنة الخاصة باتفاقية الحرية النقابية رقم ١١ الصادرة فى عام ١٩٢١ بشأن عمال الزراعة والذى جاء فيه.. أنه بينما يجب أن يعامل العمال الزراعيون من حيث الحرية النقابية بنفس الطريقة التى يعامل بها العمال الصناعيون إلا أنه لا يمكن إعطاؤهم الحق النقابى إلى الحد الذى سبق إعطاؤه فعلاً للعمال الصناعيين.. والجدير بالذكر أن واصفى هذا التفسير يمثلون فقط الدول الرأسمالية والصناعية الحديثة حيث كانت اللجنة المذكورة قاصرة على هذه الدول فقط..

ففى أمريكا البالغة الثراء توجد سمة تخلف عمال الزراعة عن عمال الصناعة جنباً إلى جنب البنوك الشامخة وناطحات السحاب، حيث يقول المناضل الأمريكى جورج مايرز.. يشترك كهنة ورهبان كاثوليك فى النضال فى سبيل المساواة بالحقوق المدنية بين البيض والزنوج، ويناضل عدد كبير منهم فى الريف ضد الجوع. ويؤيد بعض الكهنة معركة المزارعين المكسيكيين فى الولايات المتحدة الذين يريدون تشكيل نقابة عمال زراعيين منتمية إلى منظمة اتحاد العمل الأمريكى، كما يؤيدون نضالات نقابية أخرى.. وفى فنلندا التى يحكمها حزب اشتراكى ديمقراطى اسماً تتواجد أيضاً هذه السمة التى تحدث عنها ايركى سالوما بقوله.. صحيح أن رفع المستوى التنظيمى والسياسى لأجراء الزراعة يظل على جدول الأعمال، إلا أن هذه الفئة من الشغيلة قليلة العدد جداً إلى حد أن المسألة لم تعد لها تلك الأهمية الحاسمة التى كانت لها فى الماضى، ويبلغ عدد قاطعى الأشجار فى الغابات الفنلندية من ٣٠ إلى ١٣٠ ألفاً، حسب الموسم، وليس من السهل تنظيم هذه الفئة من العمال..

وهذه السمة لم تُضيق فقط الحركة الكفاحية لعمال المدن فى مواجهة مستعمريهم ومستغليهم بحيث كانت عاجزة عن الحصول عن العون والمدد من عمال الريف

وكادحيه باعتبارهم جيش الثورة الجبار، بل قد أوجدت أيضاً تناقضاً شاذاً فى صفوف الطبقة العاملة التى تستمد قوتها أساساً من وحدة صفوفها فى المدينة والريف معاً وفقاً للشعار الخالد.. يا عمال العالم اتحدوا.. وذلك نتيجة الهجرة الواسعة النطاق لعمال الزراعة ، والتراحيل من الريف إلى المدن بحثاً عن العمل وطلباً للرزق، ومن البديهى أن هذه الهجرة تتسع مع اتساع البطالة فى الريف مما يؤثر حتماً على سوق العمل بالمدينة، حيث يستغل أصحاب الأعمال الرأسماليين هذه الظاهرة جرياً وراء الربح.. فيلجأون إلى تسريح عمالهم الأصليين وتشغيل العمال الريفيين الخام البعيدين عن الوعى والتنظيم مقابل أجور تافهة وضئيلة..

ومن ثم فقد أصبح هذا التناقض الشاذ يمثل مشكلة للحركات العمالية فى البلدان الرأسمالية عموما، ففى لبنان مثلاً حدث صدام بين عمال الزراعة ، وأخوتهم عمال الصناعة إلى درجة أن الندوة التى دعت إليها مجلة الحرية اللبنانية عشية العيد العالمى للعمال فى ١٩٦٧ .. قد ناقشت موضوع هذا التناقض وهذا نص المناقشة..

- صدام بين الصناعيين والزراعيين..

- حسن السيد.. ثمة مشكلة قد تبدو جانبية ، ولكنها أساسية بالنسبة لنا فى طرابلس، تلك هى مشكلة منافسة العمال الزراعيين لعمال الصناعة، وتوفيرهم الفرصة أمام أرباب العمل للتعنت مع الفريقين معهم بإعطائهم أجوراً أقل مما يستحقون.. ومعنا بقدرتهم على استبدالنا بالزراعيين متى شاءوا..

- محمد حورانى.. نظراً لاختلاف ظروف المعيشة فإن العمال الزراعيين مستعدون للقبول بأجور أقل مما نريد نحن لسد احتياجاتنا.. ومن هذه الفجوة ينفذ أرباب العمل .. لضرب بعضنا بالبعض الآخر..

- الياس البوارى.. هذه نتيجة لغياب النقابية عن وسط العمال الزراعيين، ولو

كان لهؤلاء قادة نقابيون لما حصل مثل هذا التصادم، فعمال الزراعة محرومون ليس فقط من قانون العمل وأحكامه، وصندوق الضمان وتقدياته، بل وكذلك من العمل النقابى، ولو كان فى الريف نقابات للعمال الزراعيين لفتحت مداركهم على واقعهم وواقع إخوانهم فى القطاع الصناعى، ونبهتهم إلى ضرورة تحاشى الصدام بين أصحاب المصلحة الواحدة..

- محمد حورانى.. ويجب التنبيه إلى .. أن استمرار هذا الحال على هذا المنوال لا يضرنا كعمال صناعة فحسب .. بل هو يضر بمصلحة البلاد.. فإن مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية تظل بوراً لأن عمالها هجروها إلى المدينة..

- الياس البوارى.. يجب أن تنشأ نقابات للعمال الزراعيين، ويجب أن يعطى القادة النقابيون حريتهم فى التحرك..

ويتضح من هذا أن تخلف عمال الريف ، وكادحيه سوف يتبقى .. طالما لم تتمكن ثورة المدينة من شق طريقها إلى الريف خشية تطورها حتى يتجاوز حدود مصالح رأسمالية المدينة، ومن ثم تتحول إلى ثورة اشتراكية تعتمد فى نجاحها على التحالف الوثيق بين العمال والفلاحين، هذا التحالف الذى سوف يعبر عن تعاظم الوجود الاجتماعى لعمال الريف وكادحيه..

ثورة الريف ..

ليست المدينة وحدها وعاء للثورية، بل الريف أيضاً كذلك، حيث تفجرت فى قلبه وفى رحابه على مر التاريخ هبات وثورات فلاحية رائعة وعظيمة فجرها أجراء الريف وكادحيه بحكم كونهم قوى اجتماعية منتجة تصنع الحياة والخضرة على أرضه.. وبحكم كونهم أيضاً قوى اجتماعية مستغلة - بفتح الغين - ومدحورة من قبل المجتمع الإقطاعى والرأسمالى على السواء، مما قد سبب فى وجود تناقض حاد بينهم وبين مستغليهم، ولقد دفعهم هذا التناقض إلى خوض غمار الصراع الطبقى بحثاً عن حلٍ له حيث لا يتم تصفية مثل هذا التناقض إلا بالثورة الديمقراطية والاشتراكية..

ولهذا يسجل تاريخ النضال الريفى العديد من الهبات الفلاحية المبكرة التى شاعت فى أوربا فى القرن الثالث عشر والرابع عشر كثورة الرعاة فى (١٢٥١) والحركة الشعبية (١٣٢٠) فى جنوب الأراضى الواطئة وفرنسا، وحركة دلكينو فى إيطاليا (١٣٠٥)، وهبة ايتين مارسيل واليعاقبة فى فرنسا (١٣٥٧)، وثورة وات تايلر فى إنجلترا (١٣٨١) وانتفاضة الفلاحين فى ألمانيا (١٥٢٥) والثورة الفلاحية بقيادة حزب الثورة الزراعية لتحرير كراكوفيا من نير الاحتلال الثلاثى من روسيا وبروسيا ، والنمسا عام ١٨٤٦ - وفى سياق هذه الثورة التى لم تعش طويلاً أنشأ الفلاحون حكومتهم الوطنية الديمقراطية التى أصدرت بياناً بإلغاء الإتاوات الإقطاعية ، ووعدت بتوزيع الأرض بالمجان على الفلاحين.. وفى إيطاليا شارك الفلاحون فى الثورة ضد البابا والإقطاع، هذه الثورة الديمقراطية التى كونت جمعية

تأسيسية منتخبة بالاقتراع العام المباشر بهدف القضاء نهائياً على سلطات البابا الدنيوية.. وبعد صدور ما يسمى كذباً بقانون الإصلاح الكبير فى روسيا عام ١٨٦١ الذى زاد من قيود الفلاحين ومن أغلالهم توالت انتفاضة الفلاحين وتصاعدت بتصاعد الإرهاب الدموى القيصرى الذى عم روسيا حيث كان الإعدام والنفى إلى سيبريا يتم بالجملة للفلاحين وأنصارهم.. ورغم هذا الإرهاب الوحشى فقد تزايد النضال الفلاحى فى روسيا إلى درجة أن قيصر روسيا ظل حبيس قصره لا يبارحه خوفاً على حياته التى فقدها على يد أبطال المنظمة الفلاحية المسماة «بجماعة الأرض والحرية» وذلك بعد أن كان يُنظر إلى هذا القيصر الدموى من قبل كافة الإقطاعيين والرجعيين فى أوربا كحارس لهم من خطر الثورات العمالية والفلاحية...

وفى آسيا حدثت هبات فلاحية معادية للإقطاع مثل هبة حاجى مول فى الهند عند بداية القرن الرابع عشر وحركة المنديل الأحمر الصينية فى نفس القرن والثورات التى حدثت فى كوريا فى ١٢٣٣ وفى آواخر القرن الخامس عشر. وسلسلة الهبات التى وقعت فى اليابان فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر..

وكذلك فى الوطن العربى، حيث وقفت العديد من الثورات ضد الحكم الإقطاعى القبلى كثورة الزنج الفلاحية ضد الخلافة العباسية فى بغداد فى القرنين الثامن والتاسع أى قبل قيام الثورات الفلاحية فى أوربا.. وفى مصر التى قد شهدت أول ثورة فلاحية على الإقطاع فى التاريخ القديم، نجد أن الفلاحين فى منطقة طهطا قاموا قومة رجل واحد ، ورفضوا دفع الضرائب الإضافية التى فُرضت عليهم وألحقوا الهزيمة بالقوات الحكومية التى حاولت إخضاعهم .. ثم هجروا أراضيهم وتفرقوا فى جماعات مسلحة وفى عام ١٧٩٥ ثار فلاحوا إحدى قرى مركز بلبيس ضد الشيخ عبد الله الشرقاوى .. ملتزم جباية الضرائب لما فرضه عليهم من ضرائب

إضافية ، واضطروه إلى إلغائها .. وذلك خلال العهد المملوكى. وفى عهد حكومة محمد على المركزية القوية استمرت ثورات الفلاحين نتيجة لنظام الضرائب الجائر ونظام التجنيد ، وإشاعة السُخرة. ففى عام ١٨٢١ تجمعت عدة آلاف من فلاحى مديرية قنا حول الشيخ أحمد الصالح من قرية السالمية الذى أعلن الثورة على الحكومة وسيطر على منطقة كبيرة من المديرية عين لها حاكماً من أتباعه، مما اضطر محمد على إلى إرسال بعض فرق الجيش لإخضاعه.. وتجددت الثورة بعد عامين على نطاق أوسع فى نفس المنطقة وكان يقودها أحمد المهدى ، ومركزها البصيرات القريبة من الأقصر، وقد طرد الثائر الفلاحى أحمد المهدى موظفى الحكومة ، واستولى على مخازنها بل أنه هدد بقواته الفلاحية مدينة قنا، ولم يتمكن جيش محمد على من اخضاع الثورة إلا بمشقة بالغة بعد حرق قرية البصيرات.. واتباع أكثر الأساليب وحشية ضد الفلاحين الثائرين منها : ربطهم إلى أفواه المدافع وإطلاقها، ويقال أن عدد انقتلى من الفلاحين بلغ الألف مما يدل على اتساع نطاق الثورة، وبعد عامين آخرين قامت ثورة ضد الحكومة فى فرشوط.. وكما دفعت مظالم محمد على الفلاح المصرى إلى الثورة، فإن مظالم الخديوي إسماعيل جعلته يعود إليها، ففى أوائل حكم هذا الخديوى ثار الفلاحون فى مركز أبو تيج بسبب نظام السُخرة وإجبارهم على العمل فى مزارعه بأجور زهيدة - وقد استدعى إخماد هذه الثورة إرسال عدة فرق من الجيش أضرمت النار فى عدة قرى.. والجدير بالذكر أن النضال الفلاحى فى مصر .. لم يكن قاصراً فقط على مواجهة مظالم الإقطاع المصرى بل تعداه إلى مقاومته التدخل الاجنبى يؤيد ذلك الهبات الفلاحية لمقاومة الحملة الفرنسية التى حدثت فى رشيد وشباس عمير وطنطا وتتا وغمرين والخانكة ، والشعراء وميت القرشي، والجمالية دقهلية..

وهذه اللمحات النضالية للفلاحين تبين أن الريف فى عمومه وعاءً للثورية

الكامنة التى تظهر وتختفى، حيث يبدو الصراع الطبقى فى الريف خافتاً على امتداد مسافات زمنية ومكانية طويلة، ثم سرعان ما يلتهب بغير مقدمات فتتفجر الثورية الكامنة من خلال هبات أجراء الريف وكادحيه التى كانت تتسم دوما بالتلقائية وعدم التنظيم وتفكك الثوار.. والسبب فى ذلك يتمثل فى بشاعة العلاقات الإقطاعية، التى كانت مدعمة بشكل مطلق بفكر رجال الدين وبرجعية وتأييد الكنيسة.. حيث كان الإقطاعى وفقاً لحقه السماوى يملك الأرض وما عليها من أجراء وفلاحين، وكان هو القاضى ، والمشرع والسلطة التنفيذية - هذا بخلاف حقوقه الخُلقية التى كانت تمس الحياة الشخصية ، والأخلاقية للكادح الريفى إلى حد خطوته المشروعة بالليلة الأولى مع العروس الجديدة لأى كادح فى الريف الأوربي.. ومن ثم لم تتطور معرفة الكادحين فى الريف التى بقيت مجرد معرفة حسية ناقصة بل ومتحجرة بحيث لم يعرفوا عن الإقطاع ورأس المال إلا بعض الظواهر السطحية القليلة مما جعل مطالبهم لا تتناسب أبداً مع حجم هباتهم وثوراتهم فى أرجاء الريف، حيث لم يجرءوا عموماً على المطالبة بإلغاء جميع الالتزامات الإقطاعية، بل اقتصرت مطالبهم على القليل من بعض واجباتهم ظناً منهم أن المطالب المحدودة قد تلقى قبولاً من الطبقة الحاكمة. ولقد أدى ذلك إلى فشل الحركات النضالية لكادحى الريف (عمال الزراعة) وفلاحيه...

ورغم هذا فقد بُهرت بعض التيارات الثورية الحديثة بمظاهر النضال الفلاحى فراحت تبالغ فى ثورية الفلاحين بشكل زائد، ومن هذه التيارات، تيار الفوضويين بزعامة باكونين الذى كان يرى أن الفلاحين يتمتعون بثورية مطلقة، وكان ذلك راجعاً إلى جهل أعضاء هذا التيار بدور العمال الكفاحى فى التاريخ العالمى ولذلك كانوا يحسبون أن الفلاحين على استعداد للقيام بالثورة فوراً، وعلى هذا الدرب تقريباً كان يمشى أعضاء جماعة الأرض ، والحرية فى روسيا، حيث كانوا ينظرون إلى الفلاح والمشاعة الريفية

كمثلهم الأعلى .. وكان ذلك أيضاً راجعاً إلى إيمانهم بأن القوة الثورية الأساسية ليست الطبقة العاملة بل الفلاحين، ولذلك كتب المناضل والمفكر الروسى «هرزن» يقول.. بأنه من الممكن القيام بثورة يلعب الفلاحون فيها الدور الذى يخص العمال الصناعيين فى النظريات الاشتراكية الغربية، وأن ثورة الفلاحين هذه يمكن أن تأخذ طابعاً اشتراكياً بسبب عناصر المعيشة المشتركة التى مازالت موجودة فى القطاع الريفى..

وفى مواجهة هذا الرأى برز رأى آخر قدمه ماركس ، وانجلز من واقع خبرتهما العميقة بحركة التاريخ وعلم المجتمع ولقد أوضح هذا الرأى مدى ثورية الفلاحين الذين أصبحوا على مر الأيام طبقات اجتماعية مختلفة تبدأ بطبقة أغنياء الفلاحين، وتنتهى بطبقة الفلاحين الكادحين .. ثم طبقة الأجراء من عمال زراعة وتراحيل، وذلك من حيث تواجد هذه الثورية ومن حيث تلاشيها..

وهذا الرأى العلمى يربط الوجود والتلاشى لثورية الفلاحين بمدى تحالفهم محلياً وعالمياً بالعمال الذين يصفهم ماركس وانجلز بقولهما.. ليس بين جميع الطبقات التى تقف الآن أمام البورجوازية وجهاً لوجه إلا طبقة واحدة ثورية حقاً هى «العمال» فإن جميع الطبقات الأخرى تنحط ، وتهلك مع نمو الصناعة الكبرى أما العمال فهم على عكس ذلك، أخص منتجات هذه الصناعة.. ومن ثم فإن تحالف الفلاحين مع العمال هو ضمان تفجير ثورية الريف الكامنة ، يؤكد ذلك ما قاله ماركس بمناسبة مشروع جوتا.. تكون البرجوازية الصغيرة المؤلفة من صغار التجار والصناع والفلاحين ليست ثورية إلا على ضوء تحولها الوشيك إلى صفوف العمال، أى إلى الحد الذى تنضم فيه إلى العمال مدفوعة بما يتهددها من خطر الفناء..

ولذلك فإن هذا الرأى قد وثقته الحياة وأصبح نظرية أساسية فى كل الثورات الاشتراكية والديمقراطية الناجحة، حيث كان قبل ذلك، أى قبل ظهور نظرية

التحالف المذكورة، كانت ثورات الريف تصاب بالفشل كما كانت ثورات المدن تظل قاصرة ومحدودة..

ونظرية تحالف العمال والفلاحين التى قد انبثقت من الفكر الاشتراكى العلمى هى امتزاج ثورية الفلاحين بالفكر الاشتراكى من خلال ربط النضال الفلاحى بنضال عمال المدن.. ومن ثم يتم تعميق ثورية الفلاحين وتأصيلها بحيث تعطى ثورة الريف كل أسلحة النصر كما يقول العم هو.. أن صمودنا منذ الهجوم الأمريكى علينا عام ١٩٦٥ .. إنما يثبت رسوخ نظامنا الاشتراكى التعاونى فى الريف وأن الوطنية التقليدية للفلاحين فى فيتنام ممتزجة بالاشتراكية وحب الاشتراكية قد انغرست عميقة فى ضمير الفلاح الفيتنامى.. وهذا سلاح من أمضى أسلحة النصر..

ومن خلال هذا التحالف ظهرت ثورية الفلاحين الجديدة التى قد تعاظمت بعد نجاح ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى فى روسيا عام ١٩١٧، حيث كان نجاحها المظفر يمثل برهاناً ساطعاً على صحة ، وثبات نظرية الاشتراكية كمرشد للعمل أمام كافة الشعوب التواقة إلى الحرية ، والعدل ، والمساواة، كما كان نجاحها أيضاً بمثابة تأكيد لضرورة تحالف العمال والفلاحين كشرط لتحقيق الثورة الديمقراطية فى الريف وضمان تطورها واستمرارها..

وقد بدا تعاظم هذه الثورية الريفية بتفجير أول ثورة ريفية ناجحة قام بها الفلاحين والرعاة فى منغوليا الإقطاعية ، والقبلية فى الربع الأول من هذا القرن بفضل التحالف الوثيق بين فلاحى منغوليا وعمال الاتحاد السوفييتى وطن الاشتراكية الظافرة..

وهكذا قدم الرعاة والفلاحون فى منغوليا مثلاً رائعاً جداً على إمكانية نجاح ثورة الريف التى كانت تتصف بأنها ثورة مدفونة وكامنة، وذلك بانتزاع السلطة السياسية بواسطة العمال الزراعيين والفلاحين الكادحين لأول مرة فى التاريخ بهدف تغيير

المجتمع القبلى والإقطاعى وجعله مجتمعاً تقدمياً يتجاوز مرحلة الرأسمالية ويتخطاها تماماً إلى مرحلة الاشتراكية، وهذا المثل المنغولى لم يتضمنه الأدب الاشتراكى الكلاسيكى، ولكن الحياة قد أثمرته بفضل نجاح ثورة أكتوبر الاشتراكية، كما يتنبأ هذا الأدب بأن العامل الزراعى والفلاح الكادح سوف يحقق كلٍ منهما وجوده الاجتماعى والسياسى على هذا النحو الخلاق..

والمثل المنغولى لا يعنى غير أن الوضع العالمى قد تهيأ لقبول ثورة الريف الزراعية فكراً وعملاً، ولذلك فقد تطور هذا المثل تطوراً هائلاً بواسطة أفكار الرئيس ماوتسى تونج قبل مذبحة شنغهاى الشهيرة عام ١٩٢٧.. حيث نظم الجنرال الخائن تشيانج كاى تشيك انقلابه الدموى ضد الثورة الصينية وقام بتقتيل العمال والفلاحين وأعضاء الحزب الشيوعى فى مدينة شنغهاى وغيرها من المدن التى أصبحت مركزاً للثورة المضادة ووكراً للخونة والإقطاعيين الهاربين من وجه ثورة الريف الزراعية التى قال عنها الرئيس ماو..أن محتوى الثورة الصينية الديمقراطية حسب توجيهات الأمية الشيوعية واللجنة المركزية، وهو الإطاحة بحكم الإمبريالية وآداتها أمراء الحرب فى الصين لإتمام الثورة الوطنية ، وتحقيق الثورة الزراعية للقضاء على الاستغلال الإقطاعى الذى تمارسه طبقة العتاه ، والوجهاء على الفلاحين..

ولم تحدث مذبحة شنغهاى هذه إلا لوجود فجوة فى تحالف العمال والفلاحين نتيجة تهاون الجناح اليمينى فى الحزب الشيوعى الصينى مع الحزب الكومبيتانج، حيث تزايد ارتباطه بهذا الحزب بينما هجر الفلاحين ، ونضالهم مما جرأ الكومبيتانج على ارتكاب هذه المذبحة بقيادة تشيانج كاى تشيك، وذلك رغم تحذيرات «ماو» التى سجلها تقريره عن حركة الفلاحين فى مقاطعة هونان التى سافر إليها ومكث بها ٣٢ يوماً بقصد كتابة هذا التقرير الذى قد تم إنجازه فى مارس عام ١٩٢٧، أى قبل وقوع مذبحة شنغهاى التى وقعت فى ١٢ أبريل عام ١٩٢٧..

وكان الفلاحون فى مقاطعة هونان يعيشون كليةً فى مناخ الثورية الريفية الجديدة، وقد طوروا نضالهم بشكل رائع، حيث نظموا أنفسهم فى اتحادات فلاحية متحالفة مع نقابات العمال، وكانت هذه الاتحادات تضم أكثر من مليونى فلاح فقير ، وكادح قاموا بتحقيق أشياء جديدة على عالم الريف، فقبضوا بقوة على السلطة السياسية والاقتصادية فى المقاطعة بحيث أصبحت كل السلطة قولاً وفعلاً لاتحادات الفلاحين التى قامت بأعمال كان أبرزها:

١- توجيه الضربات لملاك الأراضى سياسياً بتحطيم هيبتهم تماماً، إزاحة سلطتهم عن مكانها فى مجتمع الريف، عن طريق معاقبتهم مادياً بالحبس والغرامة، وأدبياً بتنظيم مواكب التشهير، حيث يلبسون الطراطير التى تحمل أسماؤهم ويمشى بهم الموكب بينما تقرع الدفوف والصاجات..

٢- توجبه الضربات لملاك الأراضى اقتصادياً، بالحظر الشديد على بيع الأرز خارج المنطقة وحظر احتكاره وارتفاع سعره، ومنع الرهونات ، وزيادة الإيجارات أو فسخ عقود الأرض، وفى الوقت نفسه تم تخفيض الإيجار والفائدة..

٣- الإطاحة بحكم العتاه المحليين والوجهاء الأشرار، وقلب سلطة البندر ونقطة البوليس..

٤- الإطاحة بقوة الإقطاعيين المسلحة ، وتأسيس قوات ثورية للفلاحين، والقضاء على سلطة سعادة حاكم المحافظة..

٥- إشاعة الدعاية السياسية وجهرتها، بحيث هضمها ، وتمثلها أبسط الفلاحين والعمال الزراعيين الذين راحوا يرددون عن قناعة ، وإيمان الشعارات السياسية القائلة.. تسقط الإمبريالية - يسقط أمراء الحرب - يسقط الموظفون القساه - يسقط الوجهاء الأشرار.. ولهذا فقد طارت هذه الشعارات بغير أجنحة

إلى ملايين من الشباب والشيوخ والنساء والأطفال..

وما تم فى مقاطعة هونان كان جديداً على الحياة الريفية الراكدة، ليس فى الصين وحدها، بل فى العالم أجمع، ولهذا فقد قوبل ، وللأسف مقابلة غير طيبة من بعض العناصر اليسارية والتقدمية، حيث أزعج الأحلام العذبة لكل الرجعيين فى المدينة والريف على السواء، مما دفعهم إلى شن حملة مسعورة من الشائعات ضد العمل النضالى لفلاحى هونان الذين فقدوا تعاطف الكثير من العناصر المحبة للفكر الثورى، هذه العناصر التى جرفها تيار الشائعات الرجعية ، وما تدعيه من فظاعة العمل الثورى فى مقاطعة هونان.. أما التقدميون جداً فلم يزيدوا عن القول، هذه أمور حتمية فى مجرى الثورة ولو أنها فظيعة..

ولكن «ماو» وحده هو الذى قدم تقييماً موضوعياً صادقاً حول الأحداث الفلاحية فى هونان، حيث قال.. ولكن الحقيقة كما ذكرنا سابقاً، هى أن الجماهير العظيمة من الفلاحين قد نهضت لأداء رسالتها التاريخية، وأن القوى الديمقراطية فى الريف قد نهضت للإطاحة بالقوى الاجتماعية فيه، ثم يقول أيضاً عن أحداث هونان.. وقد حقق الفلاحون فى أشهر قلائل ما سعى إليه الدكتور - صن يات صن - ولكنه عجز عن تحقيقه خلال الأربعين سنة التى سخرها لخدمة الثورة الوطنية..

ورغم صدق هذا التقييم وموضوعيته فقد رفضه الجناح اليمينى المسيطر على الحزب الشيوعى الصينى، ولكن الأحداث الثورية فى الصين أكدت ما قاله «ماو» وخاصةً تحذيراته العبقرية واللماحة التى قال فيها.. أن كل ما يقال ضد حركة الفلاحين يجب تصحيحه بسرعة، وكل الإجراءات الخاطئة التى اتخذتها السلطات الثورية، فيما يتعلق بحركة الفلاحين يجب أن تصحح على وجه السرعة، وبهذا وحده يمكن إفادة مستقبل الثورة بعض الفائدة، ذلك لأن النهضة الراهنة التى تشهدها حركة الفلاحين

هى حدث هائل، ولن تنقضى إلا فترة قصيرة حتى يهب فى هذه النهضة مئات الملايين من الفلاحين فى مقاطعات الصين الوسطى الجنوبية ، والشمالية بسرعة خارقة، وقوة خارقة كالعاصفة العاتية، لا تستطيع أية قوة أخرى مهما تكن عظيمة، أن تقف فى وجهها، وهم سوف يحطمون جميع القيود والأغلال التى تكبلهم، وينطلقون قُدماً فى الطريق المؤدى إلى التحرر، وسوف يقذفون فى غياهب القيود بجميع الإمبرياليين وأمراء الحرب، والموظفين الفاسدين، والعتاه المحليين، والوجهاء الأشراء، أما الأحزاب الثورية، والرفاق الثوريين فإنهم سيجدون أنفسهم جميعاً أمام اختبار الفلاحين الذين سيقررون قبولهم أو رفضهم، أتسير على رأس الفلاحين وتقودهم، أم تقف وراء ظهورهم معيناً لهم، أم تقف فى وجوهم تناهضهم، إن لكل صينى الحرية أن يختار أحد هذه المواقف الثلاثة بيد أن الظروف ستجبرك على الاختيار العاجل..

وقد ظلت هذه التحذيرات بغير صدى تقريباً حتى فاق ثورى الصين من صدمتهم الأليمة التى سببتها مذبحة شنغهاى، حيث عرفوا بتجربتهم الذاتية الطبيعة الطبقية الخائنة والمزدوجة للرأسمالية الوطنية، ومن ثم فقد بدأوا على الفور يتمثلون أفكار «ماو» الصحيحة فكراً وعملاً.. ولهذا انتقل مركز الثورة إلى الريف محققاً العديد من القواعد الثورية ، والمناطق الحمراء فى الجبال والوديان. وكان ذلك يعنى أن جغرافية الثورة بدأت تتغير كما يمكن أن تتغير مناطق الزلزال والأعاصير بسبب تفاعلات جيولوجية تتم فى جوف الكرة الأرضية، ولذلك شهد العالم لأول مرة فى تاريخه أن المدينة قد تخلت عن ثوريتها إلى الريف. وقد أدى ذلك إلى انعكاس وقلب ظاهرة تخلف الريف عن المدينة سياسياً واجتماعياً فقط، بمعنى أن الريف أصبح يصدر الثورة والمدينة تصدر الثورة المضادة..

ومن خلال قلب ، وانعكاس ظاهرة تخلف الريف عن المدينة بفعل التغيير الجغرافى للثورة الصينية، تحقق أرقى وجود سياسى واجتماعى للفلاح الكادح والعامل

الزراعى، بحيث أصبح الوجود الذى يعيشه العمال الزراعيون يفوق بكثير الوجود الذى كان يتمتع به عمال الصناعة فى المدن الصينية، حيث كان العمال الزراعيين يشاركون فى قيادة السلطة الحمراء فى الريف الصينى، فى حين كان عمال الصناعة يعيشون على هامش الحياة السياسية فى المدن الصينية وكانوا يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية والثالثة.. وحيث كانت عدالة توزيع الدخول حقاً ثورياً مقدساً فى مناطق السلطة الحمراء، فى حين كان لا ينعم عمال المدن الصينية بمثل هذه العدالة..

ونعود إلى سمة التغيير الجغرافى الذى حدث فى الثورة الصينية فنقول إنها من أبرز سمات القرن العشرين الذى شهد تعاظم ثورات الريف، حيث حققت نجاحات رائعة فى آسيا ، وأفريقيا وعلى بعد خطوات فقط من أمريكا بلد الإمبريالية والحرب، وكان فتى هذه الثورات وبطلها الأسطورى ، هو المناضل الريفى الذى تشرب الفكر الاشتراكى بلهفة الظمآن، ومن ثم رفع وجوده شامخاً يناطح السحاب بما صنعه من أمجاد يفخر بها العصر، فقد مشى على قدميه صامداً مشوار المسيرة الكبرى فوق أرض الصين المترامية حتى أحرز النصر الحاسم، وهزم بجدارة كبار جنرالات الحرب الفرنسيين .. ونحر غرورهم وغطرستهم بين أطلال قلعة «ديان بيان فو» الشهيرة - ومازال يسحق المعتدين الأمريكيين ، ويدك أنوفهم بنعاله ليصنع انتصار الحياة فى ربوع فيتنام، وأطاح نهائياً بأحلام المظليين الفرنسيين الفاشست حتى عاد بترول الجزائر للجزائر ، وكرْم الجزائر للجزائر الحرة المستقلة - وعلى أرض أمريكا الجنوبية حقق النصر المبين للإنسان الكوبى ، وفجر الحقد والغضب والثورة فى غابات بوليفيا ومناجمها، وفى كل بقاع أمريكا اللاتينية ضد اليانكى اللعين..

ولذلك فقد بُهر شباب العالم ومفكروه بالثورات الريفية ، وخاصةً بعد الهبَّات الثورية التى عمت الريف فى أمريكا الجنوبية بفضل التجربة الكوبية العظيمة وما قدمته من تطوير رائع لثورة الريف، هذه الثورة التى كان يرى فيها الشهيد.. شى

جيفارا.. أنها كفيلة بالقضاء على الإمبريالية الأمريكية لو تعددت وتزايدت فى وقت واحد بحيث تتواجد فيتنام ثانية وثالثة الخ..

ومن المفكرين الذين بُهروا بثورة الريف المناضل الشاب.. ريجى دوبريه.. الذى يؤكد أن الريف والجبل يمثلان البوتقة الوحيدة لانصهار المناضل الثورى، أما المدينة فهى مكان الراحة والمتعة والخنوع والبرجزة، ولهذا فإن أى مناضل يعيش فى المدينة فإنه سوف يتحول إلى بورجوازى بما فى ذلك العمال أنفسهم، وذلك بعكس الريف والجبل اللذين يحولان البرجوازى ، والفلاح إلى عمالي ثائر، ولهذا فإن الثورة الأساسية ، وليست قوة القيادة ، أو الأيدلوجية هم الفلاحون الفقراء نتيجة أن معارك الثورة الرئيسية تتم فى الريف ، وليست فى المدينة التى قال عنها فيدل كاسترو.. أن كل من يعيش فى المدينة هو بورجوازى...

وهذا الرأى فى عمومه كتنظير متطور وجديد لثورة الريف رغم ما فيه من مبالغة سوف يكون خير مرشد لشعوب البلاد النامية لتحقيق ثوراتها الزراعية التى تُلاقى عادةً العديد من العقبات والصعاب، مما يعوق قيام أى إجراءات تقدمية فى الريف فى حين أنها تتم بسهولة فى المدينة، كما هو الحال فى بلادنا حيث تمت إنجازات اقتصادية واجتماعية هائلة فى المدينة بينما لم يشهد الريف مثلها ، ولهذا بقى ريفاً رأسمالياً فى جملته، وقد نتج عن هذا وجود تناقض فى وضعنا الثورى لا يحل إلا بثورة فى الريف الذى يضم أغلبية السكان، على أن يكون عصب هذه الثورة وقوتها الأساسية ممثلاً فى كادحى المدينة والريف، وهذا الطريق الوحيد أمام ثورة البلاد النامية للقضاء على تخلف الريف عن المدينة، وتخلف عمال الزراعة والتراحيل عن زملائهم عمال الصناعة...

تحالف العمال والفلاحين..

لقد سبق أن أوضحت أن تحالف العمال والفلاحين ، هو الركيزة الأساسية لنجاح الثورات الوطنية والاشتراكية، ويمثل الضرورة الملحة لاستمرار هذه الثورات لتمضى نحو آفاقها الاجتماعية ، وغاياتها التقدمية .. ولذلك فإن ما يعانيه تحولنا الاجتماعى فى الريف من متاعب وما يعانيه فقراء الريف وأجرائه من تخلف شديد وفقر مدقع يعود بالدرجة الأولى إلى غياب التحالف العظيم بين العمال والفلاحين، هذا التحالف الذى أبرز فكراً وواقعاً من خلال الثورات الوطنية والديمقراطية التى شهدتها أوربا فى القرن التاسع عشر ، وخاصةً ثورات عام ١٨٤٨ الذى وصفه المؤرخون البورجوازيون بالعام المجنون ففى يناير من هذا العام اندلعت نار الثورة فى جزيرة صقلية الإيطالية، وبعدها مباشرةً هب عمال باريس الشجعان وقاتلوا ببسالة أمام المتاريس حتى سحقوا جيوش الملك فيليب وأرغموا الحكومة المؤقتة على إعلان الجمهورية فى فرنسا، وفى آخر فبراير وأول مارس عمت الثورة كل الدويلات الألمانية الجنوبية والغربية المجاورة لفرنسا، وفى الوقت نفسه اندلعت حركة التحرير الوطنى فى المجر التى كانت خاضعة لمملكة النمسا المتعددة القوميات والتى كانت سجناً للشعوب. وفى ١٣ مارس قامت الثورة فى قلب فيينا عاصمة النمسا نفسها، كما قامت فى برلين عاصمة بروسيا وفى آخر مارس تعرضت إنجلترا إلى مرحلة ثورية جديدة أوجدتها الحركة الميثاقية..

وكانت تستهدف هذه الثورات التى خاضها العمال والفلاحون جنباً إلى جنب

لأول مرة فى التاريخ القضاء على الملكيات المطلقة، والملكية الإقطاعية، وتحقيق التحرر الوطنى من نير الظلم الأجنبى، ثم إنشاء دول وطنية ديمقراطية لحماية الطبقة العاملة والفلاحين الكادحين.

كما كانت أحداثها تمثل كنوزاً هائلة من خبرة صراع الطبقات مما جعلها تُثرى الفكر الاشتراكى وعلم تغيير المجتمع ثراءً بالغ السخاء.. ومن ثم أصبح تحالف العمال والفلاحين فكرة سياسية هامة بفضل رواد الاشتراكية الأوائل، ماركس، وانجلز، ولينين، وماوتس تونج الذين قادوا وعاشوا أحداث الثورات الأوربية، واستخلصوا منها بعبقريتهم أبلغ الدروس التى أوضحت هذا الجوار الثورى والجدلى بين العمال والفلاحين، هذا الجوار الذى نشأ على أرضية اجتماعية واقتصادية متجاورة جدلياً أيضاً، حيث كانت همومها واحدة بل ومشتركة كما يقول ماركس.. لا يتميز استثمار الفلاحين عن استثمار العمال الصناعيين إلا من حيث الشكل، فالمستثمر هو هو أى الرأسمالى. إن الرأسماليين كلاً بمفرده يستثمرون الفلاحين كلاً بمفرده، وبواسطة الرهن والربا. إن طبقة الرأسماليين تستثمر طبقة الفلاحين بواسطة الضرائب.. ويقول أيضاً.. بل إن الفلاح يقدم عادةً إلى المجتمع الرأسمالى أى إلى طبقة الرأسماليين جزءاً من أجرته.. ثم يؤكد نفس المعنى بقوله.. أن أرض الفلاح الصغير لم تعد سوى ذريعة تتيح للرأسمالى أن يجنى من الأرض، ربحاً، وفائدة، وريعاً، وأن يترك لمالك الأرض نفسه أمر الاهتمام بالطريقة التى يراها ناجحة للحصول على أجرته..

ولا شك أن هذا الوصف العلمى لظروف الفلاحين المتقاربة لظروف العمال اقتصادياً واجتماعياً هو بمثابة الأرضية التى نشأ عليها الجوار الثورى للعمال والفلاحين باعتبارهما صناع الحياة فى الريف والمدينة - كما أنه بمثابة الوجود الفعلى

لفكرة التحالف التى تحدث عنها ماركس قائلاً.. إن مصالح الفلاحين المقهورة فهماً صحيحاً لابد أن تدفعهم إلى التحالف مع عمال المدن. إن الفلاحين يجدون حليفهم وقائدهم الطبيعى فى عمال المدن المدعوون إلى الإطاحة بالنظام الرأسمالى..

وكان ماركس قد طور هذه الفكرة السياسية الهامة فى رسالته إلى انجلز المؤرخة فى ١٦ أبريل عام ١٨٤٩ التى ذكر فيها.. كل شئ فى ألمانيا سيتوقف على إمكانية دعم الثورة العمالية بطبعة جديدة لحرب الفلاحين.. وهذا يعنى تعميقاً لفكرة التحالف وتقديراً أكثر لثورية الفلاحين بعد مشاركتهم النشيطة فى ثورات العام المجنون وخاصةً فى ألمانيا، حيث تحالفوا مع العمال وناضلوا معهم جنباً إلى جنب، وحضروا بأعلامهم الحمراء كل المؤتمرات التى دعت إليها الجريدة الرينانية الاشتراكية، واتحاد عمال كولونيا..

وقد تناول لينين فيما بعد فكرة التحالف العظيمة وطورها بحيث أصبحت نظرية جديدة للثورة الاشتراكية التى لا تتحقق أبداً بواسطة العمال المعزولين عن بقية الجماهير بل بواسطة العمال القادة المتزعمين فكراً وعملاً، والذين لهم حلفاء فى شخص أنصاف عمال المدن، وفى شخص العناصر الكادحة فى الريف..

وبعد تنظير التحالف وتطويره أصبح علماً، وفناً له قواعده وأصوله واحتمالات نتائجه سلباً وإيجاباً. كما أصبحت ممارسته تحتاج إلى مرونة ومقدرة، وإلى جهد وصبر، وإلى إبداع وخلق، بحيث أصبح تحقيقه على هذا النحو يتطلب ضرورة توافر الأمور التالية..

أولاً.. لا يتم التحالف بين العمال والفلاحين جملةً واحدة أو على المشاع بل يتم فقط جدلياً وفق التحديدات الفئوية للفلاحين بحيث يكون تحالفاً نسبياً بمعنى أن يكون قوياً ومتيناً وأشد إلحاحاً مع الفلاحين المعدمين والفقراء أما فئات الفلاحين

الأخرى فيتدرج التحالف معهم من حيث الثورة والاستقرار لاختلافهم عن الفلاحين الفقراء كماً وكيفاً، كما تعلمنا خبرة الثورة الروسية على لسان قائدها لينين بقوله.. كلما تعاظمت الحرية الفعلية التى يظفر بها الفلاحون. اتحد الفقراء فيما بينهم بمزيد من السرعة، وأسرع الفلاحون الأغنياء بالاتحاد مع البورجوازية كلها، لندعهم إذن يتحدون فإننا لا نخاف هذا الاتحاد مع أننا نعلم تمام العلم، أن هذا الاتحاد سيزيد من قوة الفلاحين الأغنياء، لأننا سنتحد بدورنا وسيكون تحالفنا، تحالف الفلاحين الفقراء مع عمال المدن أكثر عدداً بما لا حد له، إنه سيضم عشرات الملايين ضد تحالف مئات الألوف ونحن نعلم أيضاً أن البورجوازية ستسعى جهدها (وهى تسعى جهدها منذ الآن) لكى تجتذب الفلاحين المتوسطين إلى جانبها بل الفلاحين الصغار أيضاً.. ويقول كذلك.. ينبغى لنا إذن أن نفتح عيون الفلاحين الفقراء دون تأخير وأن نوطد سلفاً تحالفهم الخاص مع عمال المدن ضد البورجوازية برمتها..

وتعلمنا أيضاً خبرة الثورة الصينية، كيف يطبق هذا التحالف نسبياً وذلك على لسان قائدها «ماو» بقوله.. من الضرورى أن نتحد مع الفلاحين المتوسطين فمن الخطأ ألا نفعل ذلك، ولكن على من تعتمد الطبقة العاملة ، والحزب الثورى فى الريف لأجل الاتحاد مع الفلاحين المتوسطين وتحقيق التحول الاشتراكى فى كل الريف؟ على الفلاحين الفقراء وحدهم طبعاً، هكذا فعلنا يوم خضنا النضال ضد ملاك الأرض وأجرينا الإصلاح الزراعى ، وينبغى أن نفعل الآن كذلك ونحن نناضل ضد الفلاحين الأغنياء وغيرهم من العناصر الرأسمالية لأجل إجراء التحويل الاشتراكى فى الزراعة..

ثانياً.. ضرورة الحزب السياسى لإنجاز التحالف ، وتحقيق استمراره كما قد تم فى

جميع الثورات الوطنية والاشتراكية الناجحة ولهذا يقول ترونج تشن أحد قادة فيتنام الشمالية.. لم تكن تعبئة الفلاحين تتم باستثارة الحماس ولكن بالتنظيم فى حزب..

ثالثاً.. تتوقف حياة التحالف على عمل مشترك وهدف مشترك للعمال والفلاحين باعتبار ذلك وسيلة نضالية مشتركة إلى غاية اجتماعية مشتركة أيضاً.. ويتحدث لينين عن العمل المشترك الذى يجب أن يسود التحالف فيقول.. لا يمكن تأمين التحالف بين العمال والفلاحين إلا بعمل مشترك يمتحن هذه التدابير على نار النشاط العملى.. وهذا العمل المشترك يتخذ أشكالاً ومظاهر مختلفة أبرزها مشاركة العمال والفلاحين معاً فى الحرب الثورية، ولهذا قال ماو.. أن تأسيس الجيش الأحمر وقوات الأنصار والمناطق الحمراء ، وتطورها يمثلان الشكل الأعلى لنضال الفلاحين تحت قيادة العمال فى الصين المستمرة.. وأبرز هذه الأشكال أيضاً مشاركة الفلاحين فى حل مشاكل الغذاء والتموين للعمال وعائلاتهم كما حدث فى الاتحاد السوفييتى خلال حروب التدخل بعد الثورة مباشرةً، حيث أعطى الفلاحون الفقراء الدولة الاشتراكية ٤٠ مليون بود (مكيال روسى) من الحبوب بينما لجأ الفلاح الغنى إلى بيع حبوبه فى السوق السوداء بسعر يزيد على السعر الرسمى عشر مرات. ولهذا يرى لينين أن الفلاح الفقير هو فلاح كادح ، وهو رفيق حقيقى للعامل الاشتراكى وآمن حليف له وأخوه فى النضال ضد نير الرأسمالية، أما الفلاح الغنى فهو مضارب وهو حليف الرأسمالى العدو الطبقى للعامل.. أما الهدف المشترك فلابد أن يكون واضحاً ومفهوماً للعمال والفلاحين حتى أبسط الناس فيهم، لكى لا يكون التحالف أمام أنظارهم من أجل التحالف، بل من أجل غاية اجتماعية تقدمية تمس حياتهم مباشرةً مثل التحول الاجتماعى فى الريف بواسطة إصلاح زراعى جذرى يحقق حلم الفلاح فى الحياة والأرض، وخير شاهد على أهمية وضوح هذا الهدف ما جاء فى بحث عن معركة ديان بيان فو الشهيرة حيث كتب بطلها

الجنرال جياب يقول.. لقد ساهم الاصلاح الزراعى بدور حاسم فى هذا النصر التاريخى، وشرح بعد ذلك قائلاً.. كانت المقاومة تبلغ أوجها وتدخل فى مرحلتها الفاصلة، وكان جيش الشعب يوشك أن يشن الهجوم المضاد الحاسم، وقد فاض الحماس الثورى بمئات الألوف من الفلاحين، وكانوا يتدفقون إلى الجبهة بحثاً عن أى مهمة يقومون بها سواء فى القتال أو خدمة الجيش، ثم جاءت الأنباء بصدور قانون الإصلاح الزراعى وبتوزيع الأرض على الفلاحين، وحينما انتشر فى خطوط القتال سرت دفعة من الحماس، لم يكن لها مثيل، وكان الجنود كلهم تقريباً من الفلاحين..

رابعاً.. لابد من نمو شخصية الفلاح الكادح ، والعامل الزراعى، حتى تتخلص هذه الشخصية من غربتها الاجتماعية ومن عقدة الخوف الخرافى العالقة بها، ومن ثم تزداد وعياً وثورية فتستطيع بكل ثقة مواجهة تحديات التسلط الإدارى فى الريف، وتحديات أغنياء الريف ، والإقطاعيين، وكذلك تحديات العدو الخارجى بالدرجة الأولى، ويجب أن لا تخشى أبداً من نمو الشخصية الفلاحية خوفاً من التفوق الريفى والثورى تفوقاً يتجاوز قوى الثورة بالمدينة..

خامساً.. إشاعة الوعى بين عمال الزراعة والتراحيل وشدهم بقوة إلى العمل السياسى ، والنقابى بالكفاح المتواصل معهم بغير قيود وذلك للحصول على حقوق وامتيازات زملائهم عمال المدن لأن هؤلاء وحدهم هم همزة الوصل بين عمال المدينة والفلاحين فى تحالفهم، لانتسابهم الطبقى إلى العمال، وانتسابهم العائلى والإقليمى إلى الفلاحين، وهذا يجعلهم يقدمون إلى إخوتهم عمال المدن معرفتهم الصادقة والعميقة عن طبيعة الفلاحين من حيث العادات والأعراف ومن حيث التطلعات الطبقية والوضع الطبقى.. ومن ثم تتطور المعرفة الحسية الناقصة لدى هؤلاء العمال الزراعيين وتصبح معرفة عقلية ونظرية - وهذا يعنى نمو وعيهم

الذى سوف يخدم قضية التحالف، والجدير بالذكر أن الكوادر السياسية التى تتولد من وسط هؤلاء العمال أقدر الناس على فهم نفسية الفلاحين فهماً يفوق فهم العلماء والفلاسفة، وأقدرهم أيضاً على فرز التناقضات فى الريف بفضل التمايز المحسوس بين الفلاح الفقير والكادح وبين الفلاح الغنى والمتوسط، ثم تقديم طريقة حل هذه التناقضات بما يتفق وظروف الثورة والتحالف..

سادساً.. أن أهم شئ ينمى روح التحالف هو قوة المثل الذى يقدمه مبشروا التحالف بالريف، وذلك بالفهم العميق لمزاج الفلاحين ، ومصادقتهم بإخلاص، بواسطة الحياة معهم كليةً ومشاركتهم العيش والملح، بحيث لا يتأفف مبشروا التحالف من أكل خبز البتاو الردئ الذى يلوى الأمعاء، وكذلك «لبصل الحراق والمش أبو دوده»، ولا يزدرى أى واحد منهم من النوم فى الجرن وفى الزريبة وعلى قبة الفرن، ولا يصاب بالقرف والغثيان من قملهم وبراغيثهم، وأن يعيش معهم عذاب العمل فى الرى والعزيق وتطهيرات الترع والمصارف حتى يتنفس مثلهم غبار الريف وترابه ويستحم فى طينه وأوحاله - وفى مقدمة كل هذا عليه أن يقدم قوة المثل فى التضحية من أجل قضية الثورة .. فيكون دائماً آخر من يأكل ، وآخر من ينام وأول من يموت على حد تعبير شى جيفارا.

سابعاً.. تقوية جسور التحالف فى الريف والمدينة - هذه الجسور التى تتمثل فى نقابات عمال الزراعة ، والصناعة وفى اتحادات الفلاحين وجمعياتهم التعاونية، وذلك بإشاعة الديمقراطية فى قلب هذه التنظيمات، وإبعادها عن نفوذ الدوائر الإدارية والبوليسية، وتنقيتها من الطفيليات البورجوازية..

الوجود السياسي لأُجرَاء الريف في بلادنا

يشهد الواقع فى بلادنا على أن الثورة لم تصل إلى مرحلة الشمول، فثورة المدينة ما زالت محدودة وثورة الريف مازالت كامنة، وذلك لغياب التحالف بين العمال والفلاحين، هذا التحالف الذى يتحقق من خلاله وفى كنفه الوجود السياسى للفلاحين الكادحين عامةً وللأجراء الزراعيين خاصةً. علماً بأن ثورية الفلاحين الكامنة قد تفجرت وتصاعدت فى عهد أسرة محمد على، حيث شاركوا فى الثورة العرابية مشاركة أذهلت مراسل الستاندرد البريطانية نفسه فكتب يقول.. لقد سرت روح الوطنية فى مصر التى كانت مصابة بالسُبات والوهن، ومثل رقاد المصريين فى الماضى ونشاطهم الآن كمثل الغلال التى خُزنت فى الأهرام آلاف السنين وعند تعرضها للشمس ظهرت ونمت - سرت الروح إلى فلاحى مصر الذين كانوا مثل الرفات وهم طبعاً يريدون تخليص مصر من النفوذ الأجنبى ، سواء كان من باريس أو لندره، وبما أنهم عقلاء قالوا: نريد أن تكون مصر للمصريين، وهذا بالطبع شئ زائد عن كون مصر لبشواتها وأعيانها..

وما قاله هذا المراسل الإنجليزي يوضح أن الفلاحين كانوا يمثلون القوة الأساسية للثورة العرابية، ورغم هذا فلم يكن لهم أية قوة تذكر فى قيادتها، وكانت تلك مصيبتهم دوماً، مع العلم أن هذه الثورة الوطنية قد شهدت ظهور شخصيات قائدة وعظيمة من الفلاحين كان من الممكن جداً أن تتطور بثورة الريف بربطها بنضال الفعلة[1] المصريين فى القاهرة والإسكندرية الذين قد شاركوا أيضاً فى الثورة

(١) تسمية للعمال تطلق عليهم عند نشأتهم الطبقية.

العرابية. ويربطها كذلك بتأييد الفعلة الأجانب بقيادة جمعية الفعلة الإيطالية التى كان يتزعمها العامل كامينى الذى كان يؤيد الثورة بحماس ، وشجاعة إلى حد عقد الاجتماعات الجماهيرية لمساندتها.. ولكن هذه الشخصيات التى كان لها فعل السحر فى التأثير على الجماهير فى الريف قد امتصتها المشيخات الصوفية وأغرقتها فى بحور الأذكار والدروشة، بحيث لم تستفد منها الثورة المصرية كثيراً، ومن هذه الشخصيات العارف بالله، سيدى الشيخ جوده، صاحب الضريح المشهور فى مدينة منيا القمح، هذا الشيخ الفلاح الذى كان بمثابة وزير التموين والامدادات لخدمة الثورة العرابية، حيث كان يقدم لجيشها يومياً قوافل الجمال المحملة بالقمح والعسل والسمن من التبرعات التى كانت تنهال عليه من أتباعه ، ومريديه من الفلاحين.. ومن هذه الشخصيات أيضاً الشيخ شحاتة القصبي، هذا الشيخ الفلاح المناضل الذى قدم خير برهان على نضالية الريف المصرى وحمايته للمناضلين والثائرين وذلك من خلال إخفائه وحمايته للشيخ عبد الله النديم فيلسوف الثورة العرابية وخطيبها بقرى الدقهلية والغربية والمنوفية..

وفى ثورة ١٩١٩ التى كانوا يمثلون قوتها الأساسية هم وإخوتهم عمال المدن، لم يكن لهم أيضاً أى دور يذكر فى قيادتها التى استحوذت عليها الرأسمالية المصرية الشرهة، التى قد أدركت بذكائها خطر تحالف العمال والفلاحين على مصالحها، فعملت طاقة جهدها على عزلهما حتى خلال أحداث الثورة ومعارك الصدام مع جنود الاحتلال، خوفاً من قيام أى تحالف تلقائى بين العمال والفلاحين بفضل نضالهما المشترك وهدفهما المشترك.. ولقد تم هذا العزل بواسطة حصار تحركات الثورة بقيادات محلية مباشرة تنتمى عناصرها طبقياً إلى العمد ، والأعيان ، والذوات من أغنياء الريف، وإلى المتعلمين والمهنيين والتجار من رأسمالية المدنية. ومن ثم فكانت هذه العناصر محاطة فى مجالاتها باحترام العادة لتمتعها بالجاه والسلطان

ونفوذ المال والعائلة مما جعلها تمتطى قيادة الثورة ذات الجماهير الهائلة والمشحونة بالمشاعر الوطنية الفياضة إلى درجة تحرقها شوقاً إلى الصدام المباشر بعساكر الاحتلال الإنجليزي من أجل استقلال مصر وحريتها..

وكانت المهمة العاجلة لقيادات الثورة تتمثل فى تصفية هذا الفيض الثورى وتحويله عن هدفه من خلال تعمد معاملة الجماهير العمالية والفلاحية كأنفار للثورة ليس من حقهم إبداء أى رأى، ولكن من واجبهم فقط أن يموتوا ويحيا سعد.. كهدف محدد ومرسوم، حتى لا تتعاظم الثورة وتصبح مارداً لا يعود مرة أخرى إلى قمقمه، وعندئذٍ فقط يسيطر عليها أصحابها الحقيقيين..

ولهذا شهدت قرى وبنادر الريف المصرى معارك ضارية ضد عساكر الإنجليز، حيث تعرض الثوار الفلاحون فيها لقصف الطائرات الحربية والسفن الحربية والمدفعية الثقيلة مما تسبب فى قتل المئات منهم. وفى قرية ميت القرشي وحدها استُشهد مائة فلاح بخلاف الجرحى. ورغم هذا لم يتحقق الوجود السياسى للفلاحين الذين كانوا مجرد وقود للثورة وبالتالى لم تتواجد الشخصية الفلاحية الكادحة التى بقيت مدفونة فى المجتمع المصرى نتيجة لضياع أعظم فرصة لتحالف العمال والفلاحين وبعد فوات الأوان .. حاول الحزب الاشتراكى المصرى الذى تكون فى أعقاب ثورة ١٩١٩ تنشيط النضال الفلاحى الذى أصابه ركود شديد، وذلك كمقدمة لتحقيق نظرية التحالف بين العمال والفلاحين، ولكن هذه المحاولة لم تكتب لها النجاح لأن الفلاحين الكادحين والأجراء الزراعيين لم يصادفهم وقت الثورة وعاء تنظيمى قوى وثورى يحتويهم ثم ينمى وعيهم وثوريتهم من أجل استمرار الثورة نحو غاياتها التقدمية.. ولذلك فقد شدهم جميعاً عالم الضياع والغربة عن الحياة والمجتمع.. حيث أصبح الكادح الريفى يردد المثل القائل..

سلطان من لا يعرف السلطان.. كتعبير عن ترحيبه الوجدانى بعالم الضياع والغربة، هذا العالم المظلم الذى كان يجتر فيه ذكرياته عن الثورة بواسطة حكاياته عن الثورة وملاحمها إلى الشباب والصبية من أبنائه ، وأحفاده فيحكى لهم كل شئ مرتبط بسعد زغلول، وحتى ورقة الفول المكتوب عليها يحيا سعد زغلول. أما وجوده السياسى فقد أصبح مجرد فرض حالة من الحشد الإكراهى للمئات من زملائه تم شحنهم رغماً عنهم فى السيارات اللورى ليرددوا هتافات ساذجة تقول.. تنتخبوا مين، لملوم باشا، بتحبوا مين، لملوم باشا، عاش البيه الملك.. يحيا الباشا المدير، الخ.. وفى حالة من حالات هذا الحشد الإكراهى بقصد الترحيب والحفاوة برئيس الوزراء بمناسبة جولته فى الاقاليم، أن انفجر الآلاف منهم بالهتاف فجأة مرددين.. يحيا حضرة ضابط نقطة هلا[1].. وذلك لمجرد مرور هذا الضابط أمامهم، مما جعل مدير المديرية يصاب بذعر وفزع ويجرى مهرولاً هو وضباطه قائلاً لهم فى غضب.. يا بهايم يا ولاد الكلب، اهتفوا بحياة صدقى باشا وبس..

وبسبب غياب الوجود السياسى لكادحى الريف وأجرائه تحملت جماهير الطبقة العاملة فى المدن مع جماهير الطلبة أعباء النضال الوطنى كله. ولم تظهر نضالات ريفية إلا بشكل نادر وشحيح فى ساحل سليم وبهوت وكفور نجم وفى سمبو مقام ودقهله والسرو وبعض قرى مركز أجا، مع العلم أن التنظيمات الشيوعية السرية التى تكونت فى مصر فى نهاية الحرب العالمية الثانية قد كافحت بصدق لبعث النضال الفلاحى، حيث شنت حملة موفقة فضحت فيها الملكية وتحالف الإقطاع ورأس المال أثناء مأساة عمال الزراعة والتراحيل فى محافظتى قنا وأسوان بسبب تفشى وباء التيفود الذى قضى على حياة الآلاف منهم، مما اضطر الملك فاروق إلى

(١) قرية فى محافظة الدقهلية.

زيارة المحافظتين وزيارة بيوت فلاحيها وعمالها الزراعيين وتقديم المساعدات العاجلة خوفاً من انفجار السخط الشعبى - كما قد كافحت هذه التنظيمات الشيوعية لجمهرة الفكر الاشتراكى فى الريف وأصدرت مجلة سرية باسم صوت الفلاحين، حتى استطاعت أن تكسب بعض المواقع الريفية القليلة بعد كسب قلة قليلة من خيرة فلاحيها الكادحين ، وعمالها الزراعيين إلى صفوف الاشتراكية حيث أصبح بعضهم من أبرز الكوادر الاشتراكية فى مصر..

ومن ثم فالوجود السياسى لأجراء الريف يمثل قضايا الثورة المصرية، وخاصةً بعد تواجد بداية الوجود السياسى للفلاحين بفضل إصدار قوانين الإصلاح الزراعى، ومشاركتهم مع العمال فى ضمان الحصول على نصف مقاعد التنظيمات النيابية ، والشعبية على الأقل، ولذلك فالحزب السياسى مطالب بوضع هذه القضية الحيوية كنقطة مستمرة فى جدول أعماله لأنها بمثابة مفتاح التحول الاجتماعى فى الريف..

الوجود الاجتماعي لهؤلاء الأُجرَاء..

عاش عمال الزراعة فى مصر المعروفين، بالأجرية، والتملية، والمرابعين، والكلافين، والخُطرية، والترحلجية، إلى آخر تسمياتهم فى الريف عيشة مُهانة وغير مرضية على الإطلاق كما تحدثت من قبل. لأن مصر الإقطاعية والرأسمالية رفضت كليةً وجودهم بعد أن اغتالت وجودهم السياسى بقصد إضعاف جيش الثورة الوطنية الديمقراطية فى مصر وبالتالى القضاء على فرص قيام أى تحالف ثورى بين العمال والفلاحين لمواجهة تحالف الإقطاع ورأس المال الذى يحكم مصر والممثل فى حزب الأحرار الدستوريين وحزب السعديين وبعض الشخصيات السياسية المستقلة والجناح اليمينى فى حزب الوفد المصرى، ولهذا لم تعترف الحياة المصرية حتى بشخصيتهم الإنسانية وأصبحت تعاملهم معاملة الأشياء، ولم يصدر بشأنهم أى قانون لحماية حياتهم التى كانت أرخص من حياة كلاب البشوات حيث كانت تتخاطفها دائماً أخطار العمل بغير دية وبغير حساب إلى حد أن دمهم كان مباحاً ومهدراً..

ونتيجة لذلك فإن كافة التشريعات العمالية والاجتماعية لم تُظلل بحمايتها المحدودة عمال الزراعة والتراحيل طوال عمرها، وقد ترتب على ذلك أن سوق العمالة الريفى فى بلادنا ظل بغير قانون سوى قانون الربح الفاحش والكسب الحرام من خلال مباشرة السُخرة المقنعة، وذلك باستثناء إصدار قانون حماية الأحداث من عمال الزراعة والتراحيل العاملين فى محالج الأقطان فى عام ١٩٠٧ بسبب إحجام

كادحى الريف وأجرائه عن تشغيل أولادهم الصغار فى هذه المحالج لتفشى حالات إصابة العمل بينهم، حيث كانت سيور الماكينات وسكاكين الدواليب تخطف هؤلاء الأحداث العاملين لعدم وجود أية وقاية مناسبة، مما دفع الحكومة إلى إصدار هذا القانون الذى لم ينفذ، وخاصةً بعد رواج شائعة تقول.. أن بوابير المحالج والطحين لا تدور إلا إذا تزفرت سنوياً بدم طفل.. وباستثناء الأمر العسكرى رقم ٤٦٨ لسنة ١٩٤٤ الصادر فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٤٤ بشأن جعل الحد الأدنى لأجور عمال الزراعة والتراحيل بمديرتى قنا وأسوان لا يقل عن عشرة قروش، وقد صدر هذا الأمر الذى لم ينفذ أيضاً كمحاولة لترضية الشعب المصرى الساخط على تقاعس الحكومة لإنقاذ حياة كادحى الريف وأجرائه الذين اجتاحهم وباء التيفود فى مناطق زراعة السكر المملوكة لرأس المال الأجنبى فى مديرتى قنا وأسوان..

ومن المؤسف أن الحياة المصرية فى عمومها كانت خالية من أى صوت قوى يدافع عن الملايين من أجراء الريف ويطالب بحمايتهم قانونياً، حيث كانت الديمقراطية الحزبية ومنابرها الممثلة فى مجلس النواب والشيوخ والصحف الكبرى لا تدافع إلا عن مصالح تحالف الإقطاع ورأس المال، وإن كانت الصحف اليسارية الصغيرة كالجماهير والملايين والكاتب والاشتراكية قد حاولت إبراز مشاكل هؤلاء الأجراء، ولكن مضايقات البوليس السياسى كانت تعطل كل محاولة من هذه المحاولات..

وحتى الحركة الثقافية المصرية ذات التراث الكبير قد أصابها داء السكوت اللعين حيال الظروف غير الإنسانية التى يعيشها عمال الزراعة والتراحيل، ولم تقم بواجبها الإنسانى والوطنى نحوهم باعتبارهم صناع الحياة فى الريف. وكأنها لم تحس

بوجودهم ضمن خريطة المجتمع المصرى، وذلك باستثناء قلة قليلة من المثقفين اليساريين كالشاعر كمال عبد الحليم صاحب ديوان «إصرار» الذى هاجم بشدة الملكية الإقطاعية ودعا كادحى الريف وأجرائه إلى الثورة، مما استفز صدقى باشا إلى درجة مطالبته مجلس الشيوخ بإعدام هذا الشاعر الثورى..

وهكذا أغفلت الحركة الثقافية المصرية قضية الملايين من كادحى الأرض لانشغالها الشديد بتقديم آيات الولاء والشكر باستمرار للعاهل الملكى المُندى، وبكتابة آيات المديح والثناء شعراً ونثراً لتحالف الإقطاع ورأس المال بشكل مبتذل إلى حد جعل المواطن الحر يصاب بالقرف والغثيان، حيث كانت قصائد الشعر التى تنشرها الصحف تتغزل مثلاً بطبق العدس الأباظى، وليالى العدس الأباظى.

وهذا يبين أن شخصيات تحالف الإقطاع ورأس المال لم تكن فقط تقود الحركة النقابية المصرية حيث شاءت بل كانت أيضاً تحتكر المواد التى تعمل فى حدودها هذه الحركة الثقافية حتى ولو كانت مواد تافهة مثل طبق العدس الأباظى الذى كانت تقدمه مطابخ بشاوات عائلة الأباظية الإقطاعية..

ولم يتغير موقف الحركة الثقافية بخصوص هؤلاء الأجراء إلا بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وصدور قوانين الاصلاح الزراعى، حيث كتب محمد صدقى قصته «الأنفار» وكتب عبد الحليم عبد الله قصته «مملكة التراب» وكتب غيرهما من الكتاب والشعراء عن حياة عمال الزراعة والتراحيل وما فيها من بؤس شديد وفقر مدقع، وفى الوقت نفسه فاضت الصحف الكبرى بأخبارهم وكتابة التحقيقات عنهم، وهذا يفسر أمرين - أولهما - أن الديمقراطية الرأسمالية التى غطت المجتمع المصرى قبل الثورة مهما كان فهى ديمقراطية مظهرية ومزيفة رغم تعدد مؤسساتها الممثلة فى الأحزاب والصحافة، التى كانت تدعى أنها حرة، ومجلس النواب

والشيوخ - وثانيهما - أن الحركة الثقافية المصرية فى عمومها كانت رأسمالية وغير تقدمية وطليعية..

والحياة المصرية على هذا النحو قد تركت آثارها السلبية على عمال المدن باعتبارهم الأخوة الطبقيين لأجراء الريف، وقد ظهر ذلك فى تجاهلهم لعمال الزراعة والتراحيل فلم يكافحوا من أجل تطبيق التشريعات العمالية الاجتماعية عليهم، ولم يقدموا لهم خبراتهم النضالية والتنظيمية، وقد أدى هذا التجاهل لهؤلاء العمال إلى عدم تنفيذ أية اتفاقية من اتفاقيات مكتب العمل الدولى مثل الاتفاقية رقم ١٠ بشأن تحديد سن العاملين بالزراعة بأربعة عشرة سنة، والاتفاقية رقم ١١ بشأن حقهم فى التنظيم النقابى، والاتفاقية رقم ٢٥ بشأن التأمين الصحى عليهم، والاتفاقية رقم ١٢ بشأن تعويضهم عن إصابات العمل، هذا بخلاف العديد من الاتفاقيات الأخرى التى لم تحظ واحدة منها بالتنفيذ أو التصديق عليها من قبل حكومات مصر الملكية، علماً بأن بعض المستعمرات وأشباه المستعمرات قد وقعت عليها وخاصةً المستعمرات الفرنسية..

ولم يحرم الأجراء الزراعيون من التشريعات المناسبة فقط بل قد حُرموا أيضاً من الخدمات الاجتماعية والتعليمية ، والصحية ، والتموينية بدليل الأمية الشائعة فى صفوفهم، وبدليل تفشى الأمراض والطفيليات بينهم..

وكان ذلك كله يمثل وضعاً اجتماعياً متخلفاً قد ساد حياة الملايين من أبناء الريف وأجرائه، ولقد تغير إلى أحسن بفضل قيام ثورة ٢٣ يوليو التى كان قيامها بمثابة الميلاد الحقيقى لتواجد التشريع العمالى ، والاجتماعى لعمال الزراعة والتراحيل، حيث صدر قانون الإصلاح الزراعى الأول متضمناً النص على تحديد أجورهم بثمانية عشر قرشاً يومياً، وساعات عملهم بثمانى ساعات يومياً، ومتضمنًا

أيضاً حقهم فى الوجود النقابى لأول مرة فى مصر..

ومع هذا فإن التغطية القانونية الشاملة لم تتوفر إلى الآن بالنسبة لهؤلاء العمال رغم تنبيهات المناضل عبد الناصر بشأنهم مراراً، حيث مازالوا يعاملون معاملة غير إنسانية، يؤيد ذلك ما نشرته مجلة الطليعة فى عددها الصادر فى سبتمبر ١٩٦٦ من شهادات وتقارير واقعية تفيد أن أجورهم مازالت تتراوح ما بين سبعة قروش واثنى عشر قرشاً يومياً باستثناء بعض الأيام القليلة التى ترتفع فيها الأجور بسبب زحمة العمل عند جنى محصول القطن..

الوجود النقابي على أرض الريف..

من البديهى أن غياب الوجود السياسى والاجتماعى لعمال الزراعة والتراحيل كان عاملاً فى غياب الوجود النقابى فى صفوفهم، مع العلم أن فكرة هذا الوجود النقابى قد برزت أول مرة فى يناير سنة ١٩٠٧ من خلال خطاب للزعيم الوطنى محمد فريد قال فيه.. الفلاح المصرى[1] أتعس فلاح فى العالم، ولا خلاص له من هذه الحالة إلا بنشر التعليم الابتدائى وجعله إجبارياً وتشكيل نقابات زراعية للدفاع عن حقوقه أمام الحكومة والملاك.. ولكن هذه الفكرة لم تلق أى استجابة نتيجة لحياة العزلة التى يعيشها عمال الزراعة والتراحيل، وذلك حتى عام ١٩١٩ حيث تكونت نقابتان للعمال الزراعيين فى شركة كوم أمبو ، وفى تفتيش المطاعنة بالوجه القبلى، وفى نفس الوقت تقريباً بدأ الحزب الاشتراكى المصرى الذى تكون فى أعقاب ثورة ١٩١٩، يدعو ويطالب بتنظيم كادحى الريف وأجرائه فى نقابات بواسطة برنامجه الذى نشرته الأهرام فى عددها الصادر فى ١٤ فبراير سنة ١٩٢١ على تنظيم فقراء الفلاحين فى نقابات وإيجاد صلات بينها وبين نقابات العمال ، وربطها باتحادات الفلاحين الدولية كما طالبت جريدة الحساب ذات الاتجاه الاشتراكى فى عددها الصادر فى ٧ أبريل سنة ١٩٢٥ بضرورة تكوين نقابات للعمال الزراعيين..

ولكن الدعوة إلى قيام نقابات عمالية فى الريف مجرد حبر على ورق لعدم مساندتها

(١) كان عامل الزراعة والتراحيل يُطلق عليه أيضاً كلمة فلاح، ومازالت هذه التسمية تطلق عليه من الناحية العامة ، ولذلك فالمقصود بعبارة الفلاح هنا هو العامل الزراعى..

بكفاح جماهيرى واسع يشترك فيه أساساً العمال الزراعيين - وحتى نقابتى شركة كوم أمبو وتفتيش المطاعنة فقد تأسستا بفضل صناعة السكر ، العمال الصناعيين بها ولذلك لم يتكررًا .. ولم يقم غيرها من النقابات الزراعية..

وعلى أثر أحداث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ تولى حزب الوفد المصرى الحكم فى البلاد وبدأ يعمل على ترضية الجماهير الشعبية وخاصةً جماهير العمال بقصد كسبهم لتأييده فى خلافه مع الملك وأحزاب السراى، ولذلك استجاب لبعض المطالب العمالية التى تقدم بها العمال من خلال مظاهراتهم وإضراباتهم الواسعة النطاق، وقد بدت هذه الاستجابة فى إصدار عدد من القوانين العمالية والاجتماعية كان أبرزها القانون رقم ٨٥ لسنة ١٩٤٢ بشأن نقابات العمال الذى كان بمثابة الميلاد القانونى والاعتراف القانونى للوجود النقابى فى مصر، ولكن هذا الاعتراف القانونى جاء ناقصاً ومبتوراً لعدم شموله تنظيم عمال الزراعة والتراحيل وكان هذا يعنى أشياء ثلاثة، (الأول) عدم كفاحية العمال الزراعيين بدليل عدم اهتمامهم كليةً بتنظيم أنفسهم فى نقابات (الثانى) قصور الحركة العمالية فى المدن لعدم فهم امتدادها الطبقى فى الريف، هذا الامتداد الممثل فى زملائهم عمال الزراعة والتراحيل الذين يجب أن يشملهم التنظيم النقابى فى هذه الأيام خدمةً للوحدة العمالية التى كانت تواجه الاستعمار وتحالف الإقطاع ورأس المال (الثالث) عدم اهتمام حزب الوفد المصرى بكسب الجماهير الكادحة فى الريف وبالذات جماهير عمال الزراعة والتراحيل لمعرفته الجيدة بوضعية هذه الجماهير التى تسيطر عليها الغربة الاجتماعية وبالتالى فقد سلمت قيادتها إلى مستغليها من إقطاعيين وأغنياء فلاحين، وكان يوجد الكثير منهم فى قيادة حزب الوفد..

ولذلك بقى الريف المصرى خالياً من النقابية العمالية حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو أيضاً، حيث تواجد الاعتراف القانونى ، والفعلى للوجود النقابى لعمال الزراعة

والتراحيل ضمن بنود قانون الاصلاح الزراعى الأول فى سنة ١٩٥٢، وضمن بنود القانون رقم ٣١٩ لسنة ١٩٥٣ بشأن نقابات العمال الذى قد أكد هذا الوجود ودعمه..

ورغم هذا الاعتراف القانونى فلم يتكون غير ٥٠ نقابة أكثرها نقابات مؤسسات حكومية ، ومعاهد ، وكليات زراعية، والبقية القليلة منها كانت تنتشر فى بعض القرى، وقد انضمت ٣٦ نقابة من هذه النقابات إلى الاتحاد المهنى لعمال الزراعة الذى قد أنشئ بعد عام ١٩٥٤..

وكانت العضوية النقابية فى هذه النقابات تعانى خمولاً شديداً لدرجة أن النقابات القليلة التى تأسست بالقرى قد أغلقت أبوابها فور تأسيسها مباشرةً، ولدرجة أن عضوية النقابات المشتركة فى الاتحاد المهنى لم تتجاوز ثلاثة آلاف عضو، علماً بأن عمال الزراعة والتراحيل فى مصر يقربون من خمسة ملايين عامل، وحتى بعد صدور قانون العمل الموحد رقم ٩١ لسنة ١٩٥٩ لم تنشط هذه العضوية ولم تزد عن العدد السابق تقريباً للعوامل التالية:

١- أن الاعتراف القانونى لم يكن كافياً لتنظيم عمال الزراعة والتراحيل فى نقابات زراعية، لأن مثل ذلك العمل يتجاوز قدرة القانون مهما كان متقدماً حيث لا يمكن تحقيقه إلا بوصول هؤلاء العمال إلى مرحلة يدركون فيها جيداً ضرورة وحدتهم وتنظيم أنفسهم بالشكل الذى يرونه، ثم يأتى تقنين هذه الضرورة والتعبير عنها بقانون، كما حدث فى كل تاريخ الحركات العمالية..

٢- كما أن ضآلة العضوية النقابية الريفية كانت خير مؤشر على بقاء قوة العلاقات الإقطاعية التى تحاصر عمال الريف وتبعدهم عن نقاباتهم. وكان الواجب الثورى العاجل سحق هذه العلاقات الإقطاعية بقوة الجماهير الكادحة والأجيرة فى الريف..

٣- لم يقم الاتحاد العام للنقابات باعتباره ممثلاً لوحدة الطبقة العاملة المصرية فى

الريف والمدينة على السواء بأى جهد يذكر لجذب عمال الزراعة والتراحيل نحو تنظيماتهم النقابية، وهذا يدل على أن هذا الاتحاد ليس ممثلاً إلا لوحدة مظهرية ودفترية وسلطوية فقط..

٤- لذلك فقد سيطر على الاتحاد المهنى لعمال الزراعة مجموعة من الأفندية من موظفى وزارة الزراعة وكلية الزراعة المقيمين بالقاهرة ممن لا ينتسبون فكراً ولا عملاً إلى أجراء الريف..

٥- ولم تعمل القيادة أى شئ يذكر لحل بعض المشاكل الصعبة لعمال الزراعة والتراحيل وتخفيف حدة استغلال المقاولين وملاك الأراضى لهم، لكى يدرك العمال بأنفسهم قيمة الوحدة وأهمية التنظيم النقابى الذى قد تحول تحت هذه القيادة القاهرية إلى أداة لخدمة مصالحها فقط..

وبعد قيام الحكم المحلى فى مصر قامت محافظة الدقهلية بمحاولة تنشيط العضوية النقابية والراكدة فى صفوف عمال الزراعة ، والتراحيل فأصدرت قراراً بحل النقابة الفرعية لعمال الزراعة بالمنصورة لسيطرة المقاولين وكبار الملاك على قيادتها، وقامت بتشكيل ٢٢٠ لجنة نقابية بقرى المحافظة ولكن هذه اللجان لم تعمر طويلاً لأنها تمت بطريقة إدارية وغير جماهيرية..

وبصدور قانون النقابات رقم ٦٢ لسنة ١٩٦٤ الذى يعتبر أكثر تقدماً من القوانين السابقة فقد زاد النشاط المظهرى ، والدفترى لهذه العضوية، حيث سجل هذا النشاط قيام ٤٢٠٠ لجنة نقابية زراعية طفرة واحدة بواسطة الأجهزة الإدارية. وكان هذا دليلاً على أن هذه العضوية لم تنشط إلى الحد الذى تتطلبه مرحلة التحول الاجتماعى فى بلادنا، وخاصةً أن هذا النشاط المصطنع كان يمثل فجوة تسرب منها بسهولة الكثير من المقاولين وأتباعهم إلى قيادة اللجان النقابية الزراعية، يؤيد ذلك

توصيات المؤتمر التعاونى فى ١٩٦٦ التى قد تضمنت ضرورة حل اللجان النقابية الزراعية لأنها شُكلت فى ١٥ يوماً وتسلل إليها المقاولون وصبيانهم على حد تعبير عبد الحميد غازى الأمين العام لشئون الفلاحين بالاتحاد الاشتراكى..

والحقيقة أن ذلك كان عبثاً تنظيميا بالحركة النقابية الزراعية من قبل الأجهزة الإدارية التى كانت تغلف عبثها هذا بالدعاية الصارخة، حيث كانت الصحف اليومية تنشر باستمرار طوال عام ١٩٦٤ فيضاً من تصريحات المسئولين بوزارة العمل عن تزايد الأرقام المئوية لعدد اللجان النقابية لعمال الزراعة والتراحيل..

والجدير بالذكر أن عملية تنظيم عمال الزراعة والتراحيل هى أكبر وأخطر عملية تنظيمية فى مصر. ورغم هذا فالمسئولون عنها وفقاً لقانون النقابات السابق ذكره قد أدوا مهمتهم على أنها عملية لا تزيد أبداً عن عملية رص قوالب الطوب سواء بسواء - فى المؤتمر الذى عقده الاتحاد الاشتراكى بميت غمر فى أبريل سنة ١٩٦٤ تحدث مدير منطقة العمل بمحافظة الدقهلية مطالباً بضرورة السرعة فى تشكيل اللجان النقابية الزراعية فى بحر أسبوع على أن تختار كل قرية ١١ عضواً لمجلس إدارة اللجنة النقابية ثم ختم حديثه قائلاً.. لابد أن نكون فى المقدمة وأن كل قرية تسرع بهذه المهمة ستكون محل تقديرنا.. وعلى هذا الأساس تكونت اللجان النقابية الزراعية كرص قوالب الطوب، بحيث الأحياء والموتى على السواء، والعمال وغير العمال على السواء، وذلك بمعرفة السادة منظمى هذه اللجان العمدة والصراف وبعض أعضاء الاتحاد الاشتراكى .. باعتبارهم منظمى هذه اللجان التى تمت كمجرد إعداد الأسماء من سجلات العمدة والصراف وتدوينها على الورق والكشوف ثم تقديمها إلى مكاتب العمل لاعتماد اللجنة النقابية عددياً ودفترياً فقط..

وقد ترتب على أسلوب الرص المذكور وجود فجوة فى قلب النقابات الزراعية

نفذ منها المقاولون وأتباعهم إلى قيادتها كما ذكرت ففى ميت غمر مثلاً كان المندوبان اللذين قد تم اختيارهما لتمثيل اللجان النقابية الزراعية بمركز ميت غمر فى الجمعية العمومية للنقابة العامة لعمال الزراعة من مقاولى الأنفار المستقلين، وكان أحدهما معتقلاً لنشاطه الإجرامى فى الريف.. ولذلك نشرت الجمهورية فى عددها الصادر فى ٢٧-١٢-١٩٦٥ تصريحاً لأمين الفلاحين بالاتحاد الاشتراكى قال فيه.. أن اللجان النقابية لعمال الزراعة سيعاد تشكيلها بسبب الإنحراف الذى قد سادها..

وإزاء هذا الوضع فى الحركة النقابية الزراعية فقد حاولت قيادة النقابة العامة للعمال الزراعيين القضاء على خمول العضوية النقابية فى هذا المجال من خلال تنشيط اللجان النقابية الزراعية بواسطة عقد المؤتمرات العمالية فى المحافظات والبنادر الريفية والقرى وإنشاء مركز ثقافى لتوعية وتدريب أعضاء مجالس إدارة هذه اللجان، والعمل على تشغيل عمال الزراعة والتراحيل تحت إشراف اللجان النقابية، ولكن دون جدوى..حيث لم تصبح النقابات الزراعية قواعد ثورية وديمقراطية فى ريف بلادنا خدمةً لتحقيق التحول الاجتماعى فى المجال الزراعى، وبالتالى لم تبلغ قدرتها النضالية على مواجهة المسئولية التى قد حددها الميثاق الوطنى بقوله.. أن نقابات العمال الزراعيين سوف تكون قادرة على تجميد جهود الملايين الذين ضيعتهم البطالة وأهدرت بالسلبية طاقاتهم.. وذلك نتيجة للعوامل التالية :

أولاً.. مازالت الغربة الاجتماعية عالقة بوجدان عمال الزراعة والتراحيل، ولم يقم المجتمع الجديد بعمل جدى منظم وثورى لشد هؤلاء العمال نحو الحياة الجديدة، عن طريق إعطائهم رويداً رويداً الحقوق والامتيازات التى حصل عليها زملاؤهم عمال المدن، وعن طريق مشاركتهم الإيجابية - أى التقديرية بالتحديد - فى قيادة التنظيمات الشعبية والمحلية فى القرية والبندر كالجمعية التعاونية ومجلسى القرية والمدينة ولجنة الاتحاد الاشتراكى حتى تتلاشى غربتهم وتتفتح عيونهم على

مصر الثورة، مصر الجديدة، ومن ثم فسوف تتطور معرفتهم الحسية الناقصة إلى معرفة عقلية تمكنهم وتبصرهم بأهمية الوحدة والتنظيم فى مواجهة مستغليهم..

ثانياً.. وبجانب هذا فقد كانت عملية تأسيس هذه اللجان النقابية تتم بمعرفة وإشراف الإدارة. ولذلك فقد ساد « عمال الزراعة والتراحيل » نوع من الخوف الخرافى المتوارث أباً عن جد حيال أى عمل إدارى، حيث كانت هذه الأعمال الإدارية تعتبر دائماً مقدمة ثقيلة وبغيضة لجرهم من أقفيتهم إلى السُخرة والعمل الإكراهى وهذا ما جعلهم يبتعدون عن النقابة الإدارية مرددين فى همس.. سلطان من لا يعرف السلطان..

ثالثاً.. لم تنبت فكرة اللجان النقابية الزراعية على أرض الريف، ولكنها جاءت جاهزة مجهزة من المدينة ولهذا لم يقربوها لأن الريفيين عموماً وتاريخاً لا يثقون كثيراً فى أية وصفة تأتيهم من المدينة..

رابعاً.. وقد وصلت هذه الوصفة التنظيمية الجاهزة إلى الريف بواسطة الأفندية من موظفى وزارة العمل الذين لم يعرفوا شيئاً عن نفسية عمال الزراعة والتراحيل ولا عن ظروفهم الحياتية الصعبة، ولذلك لم تتكون نقابات زراعية حقيقية وخاصةً أن الريفيين يمقتون الأفندية الذين لم يروا منهم أى شئ يسر القلب، فمنهم المُحضر الذى يطوف حياتهم بالحجز ، والتبديد ، والخراب، والمحامى الذى يخدعهم دائماً فى سبيل حق لا يأتى أبداً، والموظف الذى يقول لهم دائماً.. امشى اخرج بره.. وحتى منهم الصيدلى المتجول الذى يحتال عليهم كثيراً ليبيع لهم شربة الحاج محمود ذات المفعول السحرى العجيب..

خامساً.. قصر المدة الزمنية لإنهاء أخطر عملية تنظيمية فى بلادنا، من حيث أهميتها السياسية التى هى عملية بناء مراكز ثورية لأكثر الطبقات الريفية ارتباطاً بالثورة والتحول الاجتماعى.. ومن حيث اتساعها الذى يغطى جميع قرى الجمهورية

وكفورها.. ومن حيث الكثرة الهائلة لعمال الزراعة والتراحيل الذين يقرب عددهم من خمسة ملايين عامل.. ومن حيث ظروفهم الصعبة ومشاكلهم المعقدة.. ومن حيث تخلف الوعى الاجتماعى فى صفوفهم مما أدى إلى غياب الكادر المدرب سياسياً ونقابياً بينهم، علماً بأن الصناعات المصرية التى قد عرفت التنظيم النقابى منذ سبعين عاماً تقريباً ما زال بعض أجزائها عارياً تماماً من التنظيم النقابى، كما أن عمال هذه الصناعات لم يمارسوا النشاط النقابى مرة واحدة وطفرة واحدة، بل قد مارسوه بشكل تدريجى على فترات زمنية متباعدة، وقد تم ذلك وفقاً لمبادرتهم الحرة التى ولدتها معرفتهم الجيدة بضرورة الوحدة والتنظيم لمواجهة مستعمريهم ومستغليهم على السواء - وقد شجعهم على ذلك قوة المثل الملهم للحركة النقابية المصرية المدافعة عن حقوق العمال، وكل هذا لم يتم على أساس أوامر وقرارات إدارية علوية..

سادساً.. وكان الشكل التنظيمى للحركة النقابية الزراعية لا يتفق وحداثتها ولا يتفق كذلك مع ظروف عمال الزراعة والتراحيل، حيث أن هذا الشكل التنظيمى السارى على عمومية الحركة النقابية المصرية يتضمن مستويين تنظميين فقط يتمثلان فى اللجنة النقابية بالقرية، والنقابة العامة هناك بعيداً فى القاهرة التى لم يرها غالبية عمال الزراعة والتراحيل - وهذا يبين تبعية القرية للمدينة حتى فى المجال العمالى الريفى..

سابعاً.. عدم توفر الديمقراطية النقابية فى حياة هذه اللجان، حيث لم تتم فيها انتخابات حرة وترشيحات حرة عند عقد جمعياتها العمومية التى تعتبر خير مدرسة ديمقراطية يتعلم العمال فيها كيفية النشاط النقابى والنضال النقابى، وكان ذلك نتيجة للتدخل الإدارى الذى شجع إسلوب النقاوة والاختيار، بدلاً من قرف الانتخابات والترشيحات..

الصراع الطبقي في قلب الريف ..

هل الصراع الطبقى معدوم لدى عمال الزراعة والتراحيل فى قلب ريفنا؟ هذا السؤال قد طرح نفسه نتيجة للحديث عن الوجود الخامل الذى يغطى عمال الزراعة والتراحيل، والذى لا يعبر عن انعدام الصراع الطبقى فى الريف بل يعبر فقط عن خموله الشديد - حيث يؤكد واقع الحياة وكل الأدب الاشتراكى بما فى ذلك الميثاق الوطنى، أن الصراع الطبقى لا يصيبه العدم طالما بقيت التناقضات الطبقية التى لا تستبدل بالوفاق الطبقى، لأنه من المستحيل التوفيق بين الظالم والمظلوم إلا إذا تنازل الأغنياء عن أرضهم وعزبهم ومصانعهم عن طيب خاطر، وطبعاً لن يقبلوا ذلك أبداً بغير سلاح الصراع الطبقى - فعائلات البدراوى باشا، وللوم باشا، والمغازى باشا، ومجموعة بشاوات بنك مصر، وشركات عبود باشا، لم تتنازل عن أرضها وعزبها ومصانعها طواعيةً وكرماً، ولكن انتزعت منها بفضل ثورة ٢٣ يوليو التى كانت تمثل حدة الصراع الطبقى فى مصر هذا الصراع الذى يمثل وحده القوة المحركة للتاريخ والتطور فى كل المجتمعات الاستغلالية..

ومن ثم فإن الوجود الذى يعيشه عمال الزراعة والتراحيل يعتبر فى حد ذاته مظهراً صارخاً للتناقضات الطبقية فى ريفنا، وهذا خير برهان على تواجد الصراع الطبقى فى الريف ولكن بشكل خامل للغاية بسبب الخمول الشديد الذى يغطى وعى عمال الزراعة والتراحيل الذين امتلأت أدمغتهم بصور روحية رديئة ومتخلفة عن العالم والدنيا، حيث الخرافة المطلقة والجهل المطبق، والخوف الخرافى كلها أمور

تشكل حياتهم الروحية، ولذلك فحياة النبل فى تصورهم، تنبع من علوم الله أو من الأحجار والرمال عند السد العالى، وفى نظرهم أن صُرة الدنيا الحجاز، والقرد إنسان مسخوط، وأن العمدة والغفير على كل شئ قدير، ولذلك فشبح الغفير والعسكرى ، والمخبر يظل جالساً متربعاً فى خيالهم على الدوام، وهذا شئ طبيعى بالنسبة لفئة اجتماعية كادحة ومنتجة، وفى الوقت نفسه معزولة فى غربتها ومحبوسة فى ضياعها إلى درجة أنها تعيش بمشاعر الغجر والبدو الرحل، ولم تسمح لها ظروف السُخرة المقننة والمقنعة أن تتبادل خلال مشاركتها فى الإنتاج أى تأثير إيجابى مع المجتمع الذى أصبحت تنظر إليه فقط من خلال معرفتها الحسية المبتورة والمشوهة، ومن خلال تعاستها وشقائها، ومن خلال ألفاظ الإهانة التى تقرع آذانها باستمرار، ولهذا فإن شكل وعيها وأفكارها جاء مطابقاً لشكل حياتها..

ولابد أن نذكر أن الوعى لدى عمال الزراعة والتراحيل لا يتصف بالخمول فقط بل يتصف أيضاً بالاضطراب والتناقض لعاملين.. أولهما.. جبرتهم العائلية والمعيشية بالفلاحين من مالكى الأرض الزراعية الذين يعشقون الملكية إلى حد الجنون حتى ولو كانت كعب قصبة على حد تعبيرهم وهذا يجعل عمال الزراعة والتراحيل مغرمين أيضاً بملكية الأرض.. وثانيهما.. ما يوجد لدى بعضهم من قراريط ضئيلة من الأرض مما يجعل وعيهم تراوده أحلام الكادحين تارةً وتغازله أطماع المالكين تارةً أخرى، فالأولى تدفع وعيهم إلى الأمام إلى الاشتراكية، والثانية تشده إلى الخلف إلى الرأسمالية..

وهذا الوعى الخامل ، والمضطرب لم ينم بينهم الإحساس الجماعى بالذات، بمعنى الإحساس بالآلام المشتركة الذى تبدو مظاهره فى الأحاديث الجماعية، والشكايات الجماعية، وفى الأغانى ، وكافة السيَّر الخاصة بالجماعة ، أو الطبقة ، وقد

أدى ذلك إلى عدم تواجد الإحساس بالمصير المشترك الذى يولد وحدتهم الطبقية من أجل تغيير مصيرهم المظلم بواسطة الكفاح المشترك الذى يمثله الصراع الطبقى النشيط..

ولذلك فقد أصبح هذا الصراع فى صورته العامة فردياً وسلبياً - وكانت مظاهره عبارة عن آهات ، وتوسلات ، وشكايات إلى المولى القدير وإلى أولياء الله الصالحين، وكانت عبارة أيضاً عن بعض الأعمال الفردية والإجرامية القليلة مثل حرق الزرع وتعليقه رداً على الاعتداءات التى كانت تقع عليهم من مقاولى الأرض ، وملاك الأراضى وأتباعهم.. مع العلم فقد تواجدت بعض المعارك النضالية القليلة جداً لهؤلاء العمال بفضل وجود بعض العمال اليساريين فى صفوفهم كما حدث فى شمال الدلتا بقرى السرو ودقهله، حيث حدثت عدة إضرابات عن أعمال التطهير ، وشتل الأرز بقيادة العاملين الزراعيين أحمد سُليم وسعيد الملاح..

وبجانب هذا فقد شهد الريف المصرى شكلاً من الصراع الطبقى ظل باقياً ومستمراً - وقد بدا هذا الشكل فى انضمام الكثير من عمال الزراعة والتراحيل إلى عصابات القتلة وقطاع الطرق التى كانت منتشرة فى الريف وذلك للعمل بها انتقاماً من المجتمع المصرى الذى كان لا يعطيهم حقهم المشروع فى العيش والحياة..

ولا خلاف على أن هذه المظاهر والأشكال لا تؤكد وجود الصراع الطبقى فى الريف، بقدر ما تؤكد وجوده فى حالة خمول شديد ومستمر مما جعله مختلفاً عن الصراع الطبقى فى كثير من أرياف العالم التى يسودها صراع طبقى يتصف أيضاً بالخمول، ولكنه خمول غير مستمر ، وغير شديد وهذا هو السبب فى أن ثورية الريف دائماً كامنة وثورته كذلك كامنة، كما قد أوضحت سابقاً..

وهذه الوضعية الخاصة بالصراع الطبقى فى الريف المصرى وقراه تدعو إلى

التفكير وإلى التأمل، وخاصةً إذا ما بين لنا التاريخ المصرى القديم أن الريف فى مصر القديمة قد غطاه صراع طبقى خامل تارة ونشيط تارةً أخرى، وهذا ما عجل بثورة الريف وثورية كادحيه الفلاحين ضد الطبقة الحاكمة التى كان يتربع فوق قمتها فرعون الملك والإله المقدس. وذلك من أجل إزالة الظلم الاجتماعى الذى تسجله أغنية مصرية قديمة غاضبة تقول..

«.. أهو مكتوب علينا.. شحن الشعير والخارصين.. فى كل يوم.. فى كل يوم.. ها هى الأجران تتفجر بالحبوب.. لكننا مرغمون.. لكننا مرغمون..»

وكلمات هذه الأغنية التى تفيض بغضب الكادحين هى خير برهان على عظمة ثورة الريف التى هزت الإقطاع لأول مرة فى التاريخ القديم، وتبدو هذه العظمة فى استعمالها سلاحاً روحياً بالغ التأثير فى هذا الوقت المبكر جداً من التاريخ القديم عموماً.. حيث استلمت ثورة الريف هذه .. سلاح الكلمة المكتوبة ، والمقروءة بجانب استعمال الدرع والقوس خلال احتدام الصراع الطبقى ، وما فرضه على كادحى الريف من تأهب واستعداد حتى أثناء ممارسة العمل والانتاج، وكان ذلك تحقيقاً للشعار القائل..« يد تبنى ، ويد ترفع السلاح..» ويؤيد هذا كله ما جاء فى التحذيرات التاريخية المشهورة للحكيم المصرى القديم..ايبور.. الذى كان يعادى ثورة الريف هذه، وفى هذه التحذيرات يقول.. والرجل يذهب ليحرث أرضه حاملاً درعه.. ثم يقول.. لماذا حقاً امتلأت البلاد بالعصابات، لماذا حقاً شُجت الوجوه، وصار حامل القوس متأهباً، واصطف صيادو الطيور وهم يستعدون للقتال، سكان الغيض فى الدلتا يحملون الدروع.. ولذلك فهذه الثورة القديمة قد حققت مضمونها الاجتماعى ممثلاً فى عدد من المظاهر كان أبرزها المظاهر التالية:

المظهر الأول: إحداث تغييرات عميقة فى بنية المجتمع المصرى القديم يوضحها

الحكيم.. ايبور.. بأقواله، لماذا حقاً أضحى الفقراء يملكون الثروات، من لم يستطع أن يصنع لنفسه زوجاً من النعال صار الآن من الأثرياء.. لماذا صار حقاً النبلاء فى عويل والفقراء فى بهجة.. لماذا حقاً يدمع أبناء النبلاء على الحوائط، الأطفال الذين كان يصلى من أجلهم صارو ملقون على الأرض.. انظر إن النبيلات يلتقطن الحب، والنبلاء يعملون فى المصنع.. من كان لا ينام حتى على لوح الخشب صار الآن يملك الفراش.. انظر من كان يملك الثياب أصبح الآن فى أسمال، ومن لم يكن قادراً أن ينسج .. صار يمتلك الآن الكتان النفيس.. انظر من كان لا يملك ظلالاً (مأوى) أصبح الآن يملك الظلال، ومن كان يملك الظلال أضحى الآن تلفعه الزوابع .. والمرأة التي كانت ترى وجهها في الماء أصبحت تملك مرآة.. انظر النبيلات أصبحن جائعات..

المظهر الثانى: وفقاً لهذه التغييرات الاجتماعية فى بنية المجتمع المصرى فقد تلاشت الإمكانيات الحقوقية للطبقة الحاكمة كما ورد فى تحذيرات الحكيم.. ايبور.. بقوله.. لماذا حقاً أُلقيت القوانين خارج الأبواب وأصبح الناس فى الحقيقة يدوسونها فى الطريق، والفقراء يمزقونها فى الشوارع. وهذا ما جعل الحكيم الملكى القديم يقول فى فزع ويأس.. ليتها كانت نهاية العالم، بلا حمل، ولا ولادة، عندئذٍ تكف الأرض عن ضجيجها، وتصبح بلا عجيج..

المظهر الثالث: كما قد تمت نقلة فى فلسفة الناس. خرج على أثرها الفرعون الإله والملك من أبدية التقديس الكائنة فى عقول الناس يؤيد ذلك أيضاً ما قاله الحكيم.. ايبور.. لماذا حقاً الذين كانوا يبنون الأهرام صاروا يفلحون الأرض، ومن كانوا فى سفينة الإله أصبحوا مجبرين على القيام بالأعمال الشاقة.. انظر إن أسرار البلاد التى لا ينبغى أن يعرفها أحد صارت مشاعاً، وأسرار ملوك مصر العليا والسفلى قد أُفشيت..

المظهر الرابع: وفى أعقاب هذه النقلة الفلسفية اهتزت فكرية الطبقة الحاكمة فى أدمغة أبسط الناس حيث لم يعد أحد يخاف أو يصدق القصة المصرية القديمة التى تحكى لنا قصة فتاة من بنات العبيد ابتلعها التمساح عقاباً على عدم الإخلاص لسيدتها، وهى قصة تُميط اللثام عن فكرية الطبقة الحاكمة التى سبق أن هُزمت فى الحياة المصرية القديمة. حيث كان يأبى الغسال أن يحمل الغسيل، على حد تعبير الحكيم ايبور الذى قال أيضاً.. لماذا حقاً أصبحت ألسنة الخادمات سليطة، وإذا تكلمت سيداتهن فإن هذا يضايقهن..

المظهر الخامس: من خلال كل هذا تولد وجود ذاتى شامخ للفلاح الكادح الذى أصبح يتمتع بشخصية قوية يمكنها أن تثبت وجودها فى مواجهة أى ظلم يقع عليها من أى حاكم أو أمير فرعونى كما حدث للفلاح الفصيح، هذا الفلاح المصرى القديم الذى تعرض لحالة من الظلم، حيث استولى على حماره واحد من أتباع الملك، فلم يسكت على الظلم الذى وقع عليه بل كافح ضده بصلابة وقوة إلى درجة أن ذهب بنفسه إلى قصر الملك وقدم شكواه التى تضمنت هجوماً كله شجاعة وجرأة قال فيه.. إذن فالأمير يرتكب الخطأ، وجهه أعمى عما يرى، وأذنه صماء عما تسمع، فقد امتلأ قلبه بما قيل له، انظر إنك مثل بلد لا رئيس له، وسفينة لا ربان فيها، ودولة بغير زعيم، انظر إنك شرطى تسرق، ومأمور يرتشى، ومدير إقليم ينبغى عليه أن يُعاقب على السرقة ، ولكنه صار نموذجاً للذى يسرق.. لا تسلب رجلاً فقيراً ضعيفاً كما تعلم، إن متاعه هو نسمة رجل معذب ومن يأخذ هذا المتاع يوقف أنفه عن أن يتنفس.. إنك قد عُينت كى تستمع، وتحكم بين اثْنين، وتعاقب اللص.. كيف يثق المرء فيك ، وقد أصبحت المعتدى ثم يقول أنت فيضان غارق وميزان مختل..

المظهر السادس: إن وجود الفلاح المصرى القديم بهذا الشكل هو بمثابة تعاظم قيمة الفرد المصرى الكادح فى نظر الفرعون الذى أصبح يتودد إليه ، ويتقرب نحوه هو وأتباعه حيث ينصح الملك «خيتى» الرابع ملك اهناسيا ولده فيقول.. لا تميز الابن ذا الحيثية عن مولد أو عن مركز، عن ابن الرجل الفقير، ولكن احكم على الناس حسب أعمالهم، أحبب الناس جميعاً.. وحيث تنص تعاليم الملك أمنمحات مؤسس الأسرة الثانية عشر إلى ابنه على قوله.. لقد أعطيت المحروم، ورفعت من شأن اليتيم، وجعلت من هؤلاء شئ ينال ما يريد تماماً كالذى هو شئ.. كما يفخر واحد من حكام هذه الأسرة الفرعونية فيقول.. لم اسئ معاملة ابن أى رجل من الناس، ولم أظلم أرملة، ولم أمتهن فلاحاً.. ولم أطرد راعياً، ولم أسخر فى أشغالى عمالاً بغير أجر، وبهذا زالت الكآبة من إقليمى، وانعدم الجوع فى حياتى..

ونعود بعد هذا السرد التاريخى فنتساءل عن الصراع الطبقى القديم الذى توارى واختفى من الحياة المصرية بحيويته الموسمية وفعاليته النشيطة فور زوال الدولة القديمة، أى دولة الفراعنة بالتحديد، بحيث لم يظهر تقريباً طوال العهود التى توالت على مصر ، وحكمها الغزاة من فرس وبطالمة ، ورومان وعرب ومماليك وأتراك مئات من السنين، حيث كُتبت على سكان مصر خلالها العبودية السياسية على حد تعبير.. بارتلمى سانت هيلر.. هذه العبودية التى قد رسخت السلبية بعمق الحياة المصرية حتى شاع فيها الجبن والخوف والنميمة ، وكذلك الكيد والمكر والتزلف إلى السلطان طبقاً لوصف المقريزى الذى يؤيده بما جاء فى كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار من قوله.. قال العقل أنا لاحق بالشام فقالت الفتنة وأنا معك، وقال الشتاء أنا لاحق بالبادية فقالت الصحة وأنا معك، وقال الخصب أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك.. ولذلك فالحياة المصرية قد اختلط فيها كل

شئ بنقيضه حتى المضحكات اختلطت بالمبكيات كما يروى المتنبى بقوله..

كم بمصر من المضحكات - ولكنه ضحكٌ كالبكا

وطبعاً بعد هذا لم يعد سكان الغيض بالدلتا يضعون الدروع، ولم يعد الفلاح يذهب ليحرث حقله حاملاً دروعه، ولم يعد كذلك حاملاً قوسه متأهباً.. وهذا هو السبب الرئيسى والمباشر لاختفاء هذا الشكل من الصراع الطبقى الذى كان اختفاؤه يمثل رِدة فى تطور المجتمع المصرى المعروف بتخطيه النظام العبودى إلى النظام الإقطاعى قبل غيره من المجتمعات بفضل هذا الشكل من الصراع وما ولده من ثورات اجتماعية وفكرية لأول مرة فى التاريخ القديم..

وكان هذا يعنى بالتحديد تحريم استعمال أدوات الحرب تحريماً مطلقاً على المصريين طوال حكم الغزاة خوفاً من ثورتهم. وبذلك لم يعد الإنسان المصرى مقاتلاً أو محارباً أو له أية علاقة بحرفة الحرب بل اقتصرت وظيفته كليةً على فلاحة الأرض بحيث أصبح مجرد آلة منتجة تقدم الزرع والضرع للغزاة. ولهذا لم ينخرط المصريون فى الجندية منذ الفراعنة إلا فى عهد محمد علي.. وقد أدى ذلك إلى حدوث نقلة عكسية فى داخل شخصية الفرد المصرى حيث تضاءل جداً الجانب الإيجابى فى شخصيته أى جانب المقاومة فى هذه الشخصية، بينما قد استفحل الجانب السلبى، أى جانب الرضوخ والاستسلام.. ولقد تعمقت هذه النقلة العكسية لوجود عوامل ثلاثة.. أولها.. طول المدة الزمنية لحكم الغزاة التى امتدت آلاف السنين.. وثانيها.. انتساب أغلب الغزاة إلى مجتمعات عبودية كالمجتمع الفارسى والرومانى، وهذا ما دفع الغزاة دوماً إلى العمل لعودة التخلف والعبودية إلى مصر.. وثالثها.. سهولة الحياة المعيشية فى مصر حيث الأرض منبسطة، والنيل منتظم فى فيضانه وفى جفافه، والمناخ الطيب والمعتدل، وبالتالى فلم يُنمِ الإنسان المصرى حتى صراعه ضد الطبيعة

وأخطارها حيث كانت تتقوى شخصيته خلال هذا الصراع وربما يقول البعض بعدم وجود أى صلة بين ممارسته حرفة القتال والحرب، وبين تقوية جانب المقاومة فى الإنسان.. وهذا صحيح بالنسبة لزمننا هذا، أما فى الماضى السحيق فالوضع يختلف تماماً، حيث كان الكادحون - عموماً - لا يملكون غير معرفة حسية محدودة مصدرها الممارسة فقط، ولهذا كان ابتعادهم عن ممارسة حرفة الحرب والقتال أو غيرها من الحرف يجعلها فى نظرهم مجرد سر سماوى لا يعرفه غير الإله. ومن ثم فإن الجرأة والمقاومة لا توجد لدى هؤلاء الكادحين بدون ممارسة أعمال الحرب والقتال يؤكد ذلك أحداث ثلاثة هى:

الحدث الأول: يتمثل فى ثورة العبيد التى قامت بقيادة سبارتكوس العبد والمصارع، فهذه الثورة لم يقدها أو يقم بها أساساً العبيد المنتجين، أى العبيد العاملين فى فلاحة الأرض وزراعتها، بل قادها وقام بها أساساً العبيد المصارعون الذين كانوا رجال سيف محترفين، حيث كان هؤلاء العبيد مجبرين على قتل بعضهم البعض ومصارعة الوحوش حتى الموت لتسلية مُلاك العبيد، وكانت حياتهم شاقة مليئة بالمصاعب والحرمان يمكن القضاء عليها فى أية لحظة.. وقد بدأت الثورة فى عام ٧٤ قبل الميلاد بنجاح مجموعة من العبيد وعلى رأسهم سبارتكوس فى الهروب من مدرسة للمصارعين، ولم يكونوا يزيدون على بضع عشرات ولكنهم سرعان ما تحولوا إلى جيش قوامه ستين ألف مقاتل نظموه على الخط الرومانى فأثار الفزع والرعب فى قلوب ملاك العبيد ، والطبقة الحاكمة فى روما القديمة، وقد تمكنوا بفضل عبقرية سبارتكوس العبد السوري ، وبفضل بطولاتهم التى لا تعرف الإذعان من إنزال سلسلة من الضربات القاصمة بالجيش الرومانى..

الحدث الثانى: هو العصيان الكبير الذى قام به الجنود المصريين المسرحين الذين

أُرغموا على السُخرة فى أشغال حفر قناة السويس. وكان هذا العصيان يعتبر ذروة المقاومة ضد السُخرة والعمل الإكراهى فى ساحات حفر القناة التى لم تشهد غير المقاومة المحدودة عن طريق الهرب ليلاً من قبل الآلاف العديدة للفلاحين المسخرين فى حفر هذه القناة..

الحدث الثالث: يبدو فى قيام الثورة العرابية فى مصر التى اعتمدت أساساً على فلاحى الريف وأجرائه الذين كانوا يمثلون قوة الثورة الأساسية.. ولم يشترك هؤلاء فى الثورة إلا بعد أن مارسوا أعمال الحرب والقتال لأول مرة منذ عهد الفراعنة من خلال مقاومة الحملة الفرنسية فى رشيد وطنطا وتتا وغمرين وميت الفرماوى والشعرا وفى معركة بولاق الشهيرة ومن خلال الجندية التى دخلت كل بيت من بيوتهم لأول مرة أيضاً منذ الفراعنة، حيث قد أثبتت هذه الجندية القدرة القتالية الفائقة للجندى المصرى الذى عاد إليها مؤخراً بعد أن نُزع منه سلاحه منذ آلاف السنين، ولذلك فان الانتصارات العسكرية التى حققها محمد على فى حروبه كانت نتيجة بسالة هذا الجندى المصرى الفلاح الذى سبب الفزع للدول الأوربية والسلطنة العثمانية على السواء..

والأحداث الثلاثة تبرز الصلة الوثيقة بين ممارسة العمل القتالى وبين نمو جانب المقاومة فى شخصية الإنسان الكادح فى كل النظم القديمة من عبودية وإقطاعية، حيث ثبت أن نمو جانب المقاومة هذا لا ينشط الصراع الطبقى فحسب بل يعمل على تصعيده إلى أبعد مدى مثلما حدث لفلاحى مصر.. حيث سرت روح الوطنية فى مصر التى كانت مصابة بالسبات والوهن، ومثل رقاد المصريين فى الماضى، ونشاطهم الآن كمثل حبات الغلال التى خُزنت فى الأهرام آلاف السنين، وعند تعرضها للشمس ظهرت ونمت، وسرت الروح إلى فلاحى مصر الذين كانوا مثل

الرفات، على حد تعبير مراسل الستاندرد البريطانية تعليقاً على قيام الثورة العرابية..

وتعليق الصحفى الإنجليزي السابق ذكره هو أبلغ وصف للصراع الطبقى لدى كادحى الريف المصرى وأجرائه، هذا الصراع الذى قد تعاظم طفرةً واحدة ثم عاد إلى خموله الشديد والمستمر فور هزيمة الثورة العرابية، لعدم توفر عوامل بقائه فى مصر الإقطاعية والمستعمرة التى قد شاع فيها الاستبداد والسُخرة. وذلك حتى اندلاع ثورة ١٩١٩ التى تعاظم فيها هذا الصراع طفرةً واحدة أيضاً ثم عاد بعدها إلى خموله الشديد والمستمر حتى وقتنا هذا رغم التطورات العظيمة التى حدثت فى قلب الحياة المصرية، ومن أبرزها ثورة ٢٣ يوليو وما حققته فى الريف من تغييرات هائلة.. ولكن التطورات والتغييرات مهما بلغت عظمتها لا تنشط أبداً الصراع الطبقى الخامل فى صفوف أجراء الريف وكادحيه، طالما كان هؤلاء فى موقف هامشى لا يتعدى موقف المشاهد والمتفرج عليها فقط. لأن فعالية هذه التطورات بهذا الخصوص لا تتواجد بغير المشاركة الإيجابية فى صنعها.. باعتبار أن هذه المشاركة التى تتم عادة رويداً رويداً وعلى فترات زمنية متباعدة هى ممارسة قتالية ذات مضمون اجتماعى يتولد من خلالها المعرفة بشقيها الحسى والعقلى. حيث يتشربها الأجراء عملياً ونظرياً فيزداد جانب المقاومة فيهم، ومن ثم ينشط صراعهم الطبقى ويتصاعد، وبدون ذلك لا ينتظر منهم نضال ثورى، لأن فاقد الشئ لا يعطيه..

إذن فليس الوعى الخامل هو السبب الوحيد فى خمول الصراع الطبقى المذكور كما قلت سابقاً. حيث أن غياب الممارسة القتالية الجديدة يبدو كسبب هام فى هذا الشأن، وخاصةً أن هذه الممارسة الجديدة تختلف عن مثيلتها فى النظم العبودية والإقطاعية القديمة من حيث كونها ليست مصدراً لتصدير المعرفة الحسية فقط بل

والمعرفة العقلية كذلك إلى الجماهير الكادحة التى تتمتع بفضلها بخبرة ثورية، ونظرية ثورية..

وحسب القول بأهمية الممارسة القتالية الجديدة فى تنشيط الصراع الطبقى. فإن هذه الممارسة بدون تنظيم أى حزب ثورى تصبح عديمة المعنى والمغزى.. وهذا يسوقنا إلى القول أيضاً بأن غياب الحزب الثورى يعتبر سبب الأسباب فى شأن الخمول الشديد والمستمر للصراع الطبقى لدى أجراء الريف وكادحيه فى بلادنا الذين حرموا من أعظم ثورة في التاريخ هي ثورة الوعي الاجتماعي..